 جامعة أم القرى

كلية الدعوة و أصول الدين

قسم الدعوة و الثقافة الإسلامية

|  |
| --- |
|  |

|  |
| --- |
|  |

|  |
| --- |
|  |

|  |
| --- |
|  |

**تفسيـــــــــــر آيات الدعوة**

112

(المستوى الثاني)

|  |
| --- |
| **مراجع المادة:**  - مختصر تفسير ابن كثير.  - التفسير الكبير للرازي .  - روح المعاني للآلوسي .  - في ظلال القرآن لسيد قطب . |

**التعريف بالمادة**:

وحدات المقرر: ساعتان دراسيتان

**أهداف المادة :**

تعويد الطالب على التفسير التحليلي والموضوعي ، وربطه بالاستنباط المباشر للأدلة الشرعية بأهمية الدعوة ووجوب القيام بها وأساليبها من القرآن الكريم على النحو التالي :

1- استنباط أهمية الدعوة والحاجة إليها من القرآن والاستشهاد بها .

2- استنباط وجوب القيام بالدعوة من القرآن الكريم والاستشهاد بآياته .

3- استنباط الأساليب الدعوية التي سلكها الرسل في دعوتهم ووجوب الاقتداء بهم من خلال الآيات المقررة .

**مفردات المادة :**

**القسم الأول:** أهمية الدعوة و تتمثل في الآيات التالية:

- سورة آل عمران من آية 104 { ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير }- إلى آية 117 { مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا}

- سورة التوبة من آية 122 { وما كان المؤمنون لينفروا كافة } إلى آخر السورة .

يستنتج من الآيات أهمية الدعوة والحاجة إليها ووجوب القيام بها .

**القسم الثاني:** أساليب الدعوة و تتمثل في الآيات التالية :

- سورة يوسف من آية 36 { ودخل معه السجن فتيان }إلى آية 41

- سورة يوسف من آية 108 { قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله } إلى آخر السورة .

- سورة النحل من آية 125 { ادع إلى سبيل ربك } إلى آخر السورة .

- سورة غافر من آية 18 { وأنذرهم يوم الآزفة }إلى آية 55 { فاصبر إن وعد الله حق }.

- سورة نوح كاملة .

يستنتج من هذه الآيات الأساليب الدعوية التي سلكها الرسل عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى الله والتي أوصى بها الله عباده الصالحون، ورثة الأنبياء والمرسلين .

**تمهـــــيد**

**معنى التفسير:**

**في اللغة:** مصدر على وزن تفعيل وهي تدل على بيان الشيء وإيضاحه فالفسر، هو البيان والكشف والتوضيح والإظهار .

**في الاصطلاح:** علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه و سلم، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه .

**معنى تفسير آيات الدعوة:** علم يبحث عن معاني ألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها وأحكامها فيما يخص الدعوة والدعاة على قدر الطاقة البشرية .

**معنى الدعوة :**

**في اللغة :** من معاني الدعوة في اللغة:

1- **النداء** : يقال : دعا فلان فلاناً إذا ناداه .

2- **الدعاء إلى الشيء** ، بمعنى : الحث على قصده .

3- **المحاولة القولية أو الفعلية والعملية** لإمالة الناس إلى مذهب أو نحلة .

4**- الابتهال والسؤال** ، يقال : دعوت الله أدعوه دعاء ، أي ابتهل إليه بالسؤال وأرغب فيما عنده من الخير .

**في الإصطلاح :**

هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى والإقرار بالشهادتين وتنفيذ منهج الله في الأرض قولاً وعملاً كما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليكون الدين كله لله .

**أهمية الدعوة إلى الله :**

لما كان نبينا محمد هو خاتم النبيين والمرسلين فلا نبي بعده ، وكانت رسالته للناس كافة إلى أن تقوم الساعة حمّلت أمته أمانة الدعوة إلى الله من بعده حيث أمرها الله تعالى بذلك في آيات كثيرة ، كما في سورة آل عمران في قوله تعالى :

{ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107) تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (108) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)}

**شرح الآيات:**

الأمة: هي الجماعة التي تؤم ، أي : تُقصد لأمر ما ، وتطلق على أتباع الأنبياء لاجتماعهم على مقصد واحد . يقول تعالى: { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ } أي: جماعة منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات {المفلحون} الكاملون في الفلاح والفوز ، قال الضحاك: هم خاصّة الصحابة وخاصة الرُّواة، يعني: المجاهدين والعلماء.

و هناتحدثت الآيات في مطلعها عن بيان أهمية الدعوة إلى الله ، فقوله تعالى: ( و لتكن ) فعل أمر(حيث أن اللام لام أمر) يدل على أهمية الدعوة الى الله و كذلك يمكننا أن نستنبط حكمها و المترتب عليها من هذه الآيات .

**فحكم الدعوة إلى الله :**

حكمها فرض كفاية و هذا مستنبط من قوله ( منكم ) ، فهي للتبعيض ، و المعنى: أي أنه تجب الدعوة على بعض المسلمين، لأنه لو قام الكل بمهمة الدعوة لتعطلت باقي أمور المسلمين فهم محتاجون للتعليم و الصناعة و الزراعة و غير ذلك من المهن التي لا تستقيم حياة المسلمين إلا بها.

فلا بد أن يكون هناك جماعة من المسلمين وظيفتهم الرئيسية هي الدعوة إلى الله متفرغون لها، و هذا ما نرآه مطبق لدينا و لله الحمد و المنة و هو متمثل في هيئة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و هذا لا يمنع مطلقًا أن يقوم غير هذه الجماعة بواجب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، بل هي واجبة على كلٍ بحسبه ، أي حسب استطاعته لقول الرسول صلى الله عليه و سلم : (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَده، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أضْعَفُ الإيمَانِ ) وفي رواية: ( وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ ).

و (من) في الحديث بمعنى كل مسلم ، أما في الآية هي للتبعيض فتختلف معناها في الآية عن الحديث.

**س/ فما حكم إنشاء هيئة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ؟**

ج/ واجبة الإنشاء ، و إن ترك جميع المسلمون إنشائها أثموا .

**و الدليل قوله تعالى:** (و لتكن مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

**س/ ما هي مهام أو وظائف هذه الفئة الداعية في قوله تعالى: ( و لتكن منكم أمة )؟**

ج/ الدعوة إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

**و أما المترتب على هذه الآيات ما يلي:**

1- توضيح أهمية الدعوة إلى الله فهي مهمة الأنبياء و المرسلين و الغاية من مبعثهم و ينبغي على الدعاة الإقتداء بهم وهذا يتضح من قوله تعالى: ( و لتكن ) فاللام لام أمر رباني للعباد .

2- لفظ ( من رأى ) الواردة في الحديث النبوي ، تدل على أهمية التبين و التأكد ، فلو قال "سمع" قد يدخلها شك أو فرية فالرؤيا آكد و أبلغ ، و المعاين ليس كالمخبر ، و من هنا نستنبط أهمية التثبت و التأكد من الأخبار.

3- الواجب على كل شخص في الدعوة الى الله حسب استطاعته، و هذا فيه رحمة من الله بعباده حيث أنه تعالى لا يكلفهم ما لا يطيقونه ، فالتغيير باليد يكون لأصحاب السلطة .

فإن لم يستطع ينتقل للمرحلة الثانية: و هي التغيير باللسان و ذلك بالجهر بالحق أو بتبليغ السلطات العليا لتقوم بواجب الدعوة و هذا لا يدخل في الغيبة في حالة إنكار المنكر و رفع الظلم و غير ذلك مما فيه مصلحة عامة للمسلمين.

أما التغيير بالقلب يكون لمن لم يستطع الانكار باليد و اللسان: و يكون ببغض المنكر ذاته و الدعاء لصاحبه و عدم المشاركة فيه، و عدم الاستماع لهم و صرف النظر عنهم ، و مغادرة مجلسهم و أن يظهر على وجهه الغضب من هذا المنكر ، فقد رَوى سُفيان بن عيينة عن سُفيان بن سعيد عن مِسْعَر قال : ( بَلَغَنِي أنَّ مَلَكًا أُمِر أن يَخْسِف بِقَرْيَة ، فقال : يا رَبّ فيها فُلان العَابِد ، فأوْحَى الله تعالى إليه أن بِـه فَابْـدَأ ، فإنه لَم يَتَمَعَّر وَجْهُه فيَّ سَاعَة قَط ) .[[1]](#footnote-1)

**و أما اساليب القرآن الدعوية:**

- الوعد و الوعيد: و هو الإتيان بتعزيز عند الأمر ، و هو جانب مهم للإستمرار ، فقد وعد الله الأمة الداعية بالفلاح في الدنيا و الآخرة بالفوز بالجنة و النجاة من النار، وهناك وعيد لمن ترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر في قول الرسول صلى الله عليه و سلم: ( وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ َتَدْعوُنّه فَلا يُسْتَجِابُ لَكُمْ ).

فدلنا هذا الحديث على عقوبة ترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بالكلية ، لأن الله عز و جل قال في الآية التالية : ( وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ).

فالله تعالى ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية - وهم اليهود والنصارى - و ذلك في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم، و فعلهم هذا ترتب عليه اللعن - كما سيأتي- ، و قوله تعالى: ( وَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ) دليل من القرآن على عقوبة ترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

**- فهل هناك فرق بين التفرق والاختلاف ؟**

قيل: أن التفرق هو الاختلاف ولا فرق بينهما و **كرر للتأكيد** .

و قيل: التفرق بالعداوة و الاختلاف في الدين و التوحيد وأحوال المعاد ( أي في الأمور العقدية) ، و هذا هو الأولى و الأصح، و الله أعلم .

**فيمكننا أن نقول**: أن التفرق و الإختلاف كالإسلام و الإيمان، إذا أجتمعا اختلفا و إن افترقا اتفقا.

و إذا كانت الكلمتان بمعنى واحد (على رأي البعض): فيكون التكرار إعجاز لغوي للتأكيد.

**س/ ما الفعل الذي ارتكبه هؤلاء الذين نهانا الله عن التشبه بهم، و أستحقوا العذاب العظيم على فعلهم؟**

ج/ ارتكبوا المعاصي و تعدوا على أنفسهم بالظلم و هو الشرك ، و تعدوا على غيرهم بأكل أموالهم، و تعدوا على الله بنسبة الملائكة و الولد له فقالوا المسيح ابن الله و عزير ابن الله - تعالى الله عما يقولون علوً كبيرًا- ، و أيضًا كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه .

و قد وصف الله عملهم بأنه أقبح الأعمال؛ لأنه ترتب عليه اللعن و العياذ بالله.

وقد لعن الله عز وجل اليهود بسبب تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال سبحانه : { لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (78) كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون }[المائدة : 78- 79]

و معنى قوله: { و أولئك لهم عذاب عظيم } أي: لا يعلم عظمته وشدته إلا الله بسبب تفرقهم واختلافهم .

وفي هذا وعيد وتهديد شديد للمتشبهين بهم – الذين يتركون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – لأن التشبه بالمغضوب عليهم يستدعي الغضب عليه .

**و في هذه الآيات يتضح لنا بعض أساليب القرآن في الدعوة إلى الله و ذلك مثل:**

- الأمر و النهي من قوله تعالى: ( و لتكن - و لا تكونوا ).

- التشبيه و ضرب الأمثال: ( كالذين تفرقوا و أختلفوا ).

- أسلوب الحصر : (أولئك هم الملحون ) ( أولئك لهم عذاب عظيم ).

- أسلوب المقابلة بين طائفتين من حيث العمل والجزاء : خيرأمة و الذين تفرقوا و اختلفوا

و هذا دليل من السنة على و جود الإفتراق و أن التفرق يكون في اختلاف العقائد، فعن أبي عامر عبد الله بن لُحَيٍّ قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ( إنَّ أهْلَ الْكَتَابَيْنِ افْتَرَقُوا في دِينِهِمْ عَلَى ثنتيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وإنَّ هذِهِ الأمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً -يعني الأهواء-كُلُّهَا فِي النَّار إلا وَاحِدَةٌ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تُجَارى بِهِمْ تِلْكَ الأهْواء، كَمَا يَتَجَارى الكَلبُ بصَاحِبِهِ، لا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلا مَفْصِلٌ إلا دَخَلَهُ. واللهِ -يَا مَعْشَر العَربِ-لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جاء بِهِ نَبِيُّكُمْ صلى الله عليه وسلم لَغَيْرُكم مِن النَّاسِ أحْرَى ألا يَقُومَ بِهِ ).

**ثم انتقل القرآن الى أسلوب الترغيب و الترهيب، قال تعالى:**

( يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّـهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّـهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّـهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّـهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّـهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾)

وقوله تعالى: { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } فقد اختلف العلماء في هذه الآية من حيث ماهية هذا البياض و السواد، هل هو أمر حقيقي أم لوازم البياض و السواد فقط ؟

**فما قول ابن عباس في هذه الآية ؟**

**قول ابن عباس:** يعني ان هذا الحدث يكون يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، حيث يوسم أهل الحق ببياض الوجه وإشراق البشرة تشريفاً لهم وإظهاراً لآثار أعملهم في ذلك الجمع ، ويوسم أهل الباطل بضد ذلك فتسودّ وجوه أهل البِدْعَة والفرقة، و هو قول جامع للأمرين و هو الصحيح.

**و قيل (مغاير لقول ابن عباس):** المراد بالبياض معناه الحقيقي أو لوازمه من السرور و الفرح و الضياء و الإشراق و كذلك السواد أو لوازمه من البؤس و الكآبة و الكدر و الضيق .

ثم يفصل الله عز وجل أحوال الفريقين، فهذا من باب التفصيل بعد الإجمال و هو أسلوب دعوي ، فقال تعالى :{ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } قال الحسن البصري: وهم المنافقون، و الإستفهام في (أكفرتم) استفهام إنكاري و المقصد منه التوبيخ و التقريع ، و هو من الأساليب الدعوية في القرآن الكريم، { فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } الأمر في { فذوقوا } للإهانة و ليس للوجوب ، وقيل : أمر تسخير أن تذوق العذاب كل شعرة وكل عضو من أعضائهم ، والباء في { بما } للسببية ، أي : بسبب كفركم ، وهذا الوصف يَعُمّ كل كافر وهو الصواب . فهي للعموم على الراجح

**س/ هل تذوق العذاب يكون فعل حسي ؟**

استعار التذوق و هو حاسة جزء من الحواس الباقية ، مع انه ليس المراد التذوق فقط ، وانما من باب ذكر الجزء مع إرادة الكل و هو من باب الاستعارة في القرآن الكريم لأن المقصود ليس باللسان فقط و انما الجسد بأكمله.

{ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ( رحمة الله ) يعني: الجنة و ليس المقصود أنها صفة من صفات الله، ماكثون فيها أبدا لا يبغون عنها حوَلا.

و قوله تعالى:(هم فيهاخالدون ) اسلوب بلاغي وهو اسلوب الحصر.

ثم قال تعالى { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ } أي: هذه آيات الله وحُجَجُه وبيناته (المذكورة في الآيات الاربعة السابقة و ما سواها) { نَتْلُوهَا عَلَيْكَ } يا محمد { بِالْحَقِّ } أي: نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة بالصدق والعدل في جميع ما دلت عليه تلك الآيات.

{ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ } الظلم : هو وضع الشيء في غير موضعه اللائق به ، والله تعالى منزه عن ذلك فهو ليس بظالم لهم بل هو الحَكَم العدل الذي لا يجور؛ لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه؛ ولهذا قال: { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ } أي: الجميع ملْك له وعبيد له. { وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ } أي: هو المتصرف في الدنيا والآخرة، الحاكم في الدنيا والآخرة.

اساليب دعوية وردت في الآيات السابقة لإبراز أهمية الدعوة إلى الله:

1- المقابلة ( في الأساليب و الطوائف) :الوعد و الوعيد - ضرب الأمثال - الأمر و النهي - جزاء و عقوبة .

2- التفصيل بعد الإجمال

3- الإستفهام الإنكاري

4- أسلوب الحصر

5- التكرار للتأكيد.

و بعد ذكر الصنفين السابقين ( الذين أبيضت وجوههم و الذين أسودت وجوههم) بدأ يذكر الأمة الثالثة و هي الأمة المحمدية ممتدحا لها بصفة الخيرية على جميع الأمم، قال تعالى :

{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (111) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (112) }

و إذا أردنا التحدث عن علاقة الآية بما قبلها: فإنها تتحدث عن أهمية الدعوة إلى الله كسابقتها.

أما التعبير بـ ( كنتم ) ليس مختص بالماضي فقط وإنما يشمل من هم على منهجهم ، و يخرج من هذه الطائفة من خالفهم و ترك منهجهم ، و (خير أمة): يعني وجود أمم أخرى كالفلاسفه و الطبائعين و الملاحدة وغيرهم كثير.

عن أبي هريرة: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } قال: خَيْرَ الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام .و هذا كناية عن الحرب وهذا كان في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم و خلفائه الراشدين عند فتح البلدان، أما الآن فهناك جاليات تخرج للدعوة في سبيل الله.

و هناك فرق بين دعوة المسلمين ودعوة غيرهم من الضالين ( المستشرقين و العلمانيين و الليبراليين ) ، فدعوة المسلمين دعوة حق

والمعنى: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: { تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ }.

عن درة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أيّ الناس خير؟ فقال: (خَيْرُ النَّاسِ أقْرَؤهُمْ وأتقاهم للهِ، وآمَرُهُمْ بِالمعروفِ، وأنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ)

**- لمن الخطاب في هذه الآية ؟**

قال ابن عباس في قوله تعالى : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } قال: هذه الآية خاصة في الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة .

والصحيح أن هذه الآية عامةٌ في جميع الأمة، لمن سبق من المهاجرين و لمن لحق بهم من التابعين، كل قَرْن بحسبه ( حيث أن هناك مفاضلة بين هذه القرون )، وخير قرونهم الذين بُعثَ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الذين يَلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } أي: خيارا { لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} الآية.

وفي مسند الإمام أحمد، وجامع الترمذي، من رواية حكيم بن مُعَاوية بن حَيْدَة، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أنْتُمْ خَيْرُهَا، وأنْتُمْ أكْرَمُ عَلَى اللهِ عزَّ وجَلَّ" .وهو حديث مشهور

**- كيف حازت ونالت هذه الأمة الخيرية ؟**

وإنما حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْق إلى الخيرات بأمرين:

- الأمر الأول: بنبيها محمد صلى الله عليه وسلم فإنه أشرفُ خلق الله أكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعْطه نبيًّا قبله ولا رسولا من الرسل. فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليلُ منه ما لا يقوم العملُ الكثيرُ من أعمال غيرهم مقامه.

- الأمر الثاني: بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قال قتادة: بَلَغَنَا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجّها رأى من الناس سُرْعة فقرأ هذه الآية: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } ثم قال: من سَرَّه أن يكون من تلك الأمة فَلْيؤدّ شَرْط الله فيها. و شرط الله فيها الأمر بالمعروف و النهي عن النكر و الإيمان بالله.

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: { كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [المائدة:79] }

ولهذا لما مَدح الله تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال: { وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ } أي: إيمانًا كاملاً كما ينبغي بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم { لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ } أي: لكان ذلك الإيمان خيراً لهم مما هم عليه من الرئاسة في الدنيا يستعصمون به من الفرقة والهلكة وخير لهم في الآخرة يقيهم ما ينتظرهم من العذاب . و هذا فيه زيادة تقريع و توبيخ لهم في الدنيا و الآخرة.

{ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } أي : قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان و الخروج عن دين الله و الإحتكام إلى غير شرع الله. و (منهم) للتقليل و التبعيض.

{الفاسقون} هم الخارجون عن دين الله وعن ميثاقه وعهده ، وخرجوا عن طاعة الله ورسوله فاحتكموا إلى شريعة غير شريعة الله .

و من لم يتصف بصفات الأمر بالمعروف و النهي عن النكر ، كان متصف بصفات اليهود و النصارى الذين كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

و لما كانت لليهود حتى في هذا العصر قوة ظاهرة عسكرية واقتصادية يحسب حسابها بعض ضعاف النفوس من المسلمين ، فقد تكفل القرآن بتهوين شأن هؤلاء الفاسقين وإبراز حقيقتهم الضعيفة ، يقول تعالى مخبرًا عباده المؤمنين الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر واعدا و ومُبشِّرًا لهم أن النصر و الغلبة و الظَّفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال: { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ } الأذى : هو الضرر اليسير ، { ثم لا ينصرون } ثم للترتيب والتراخي ، أي : ينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء ولا يكن لهم نصر من أحد بل عاقبتهم الذل والخذلان .

و هنا أسلوب بشارة و وعد بالنصر و التمكين.

أهل الكتاب: كل قوم نزل عليهم كتاب ، لكن المقصود بهم هنا اليهود و النصارى ، لأن من سبقهم أفنوا جميعًا.

و هذا الدليل الثالث على أهمية الدعوة إلى الله ، فوعد الله للمؤمنين بنفي الضررعنهم و النصر على الأعداء و التمكين لهم و من ثم الجنة كنتيجة لقيامهم بواجب الأمر بالمعروف و التهي عن المنكر دليل أهمية الدعوة إلى الله ، لكنه بين أن هناك أذى لأن المؤمن مبتلى ( الضرر: مصاب عظيم ، الأذى : مصاب يسير)

و مثال للأذى اليسير في الوقت الراهن : قضية الموضة التي يرسلوها للعرب ، فيتبعوها بحذافيرها

**و مما يدل على أهمية الدعوة:** إبراز صفات المدعوين التي يجب ان يتصفوا بها الدعاة ( الإيمان بالله - الامر بالمعروف و النهي عن المنكر و الدعوة الى الى الخير)

تكرار الصفتين الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لتأكيد أهميتهما في الدعوة إلى الله .

**س/ ما هي الوعود الثلاثة التي وعد الله بها المؤمنون؟**

1- نفي الضرر. 2- تولية الأعداء و هربهم عند القتال و المواجهة. 3- النصر و الغلبة و العزة لله و رسوله و للمسلمين.

وهكذا وقع، فإنهم يوم خَيْبَر أذلّهم الله وأرْغَم أنوفهم وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قَيْنُقَاع وبني النَّضِير وبني قُرَيْظَة كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كَسَرهم الصحابة في غير ما موطن، وسَلَبوهم مُلْك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عِصَابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وهم كذلك، ويحكم، عليه السلام بشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فيَكْسر الصَّلِيب، ويقتل الخنزير، ويَضَع الجزْية، ولا يقبل إلا الإسلام.

وفي هذا تثبيت للمؤمنين وشد عزيمتهم .

ثم قال تعالى: { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ} ، ففي الآية توعد من الله بالذلة للكفار لأنهم تركوا الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و هذا فيه مقابلة لما سبق من وعد المؤمنين بالفوز و الفلاح ، و هذه هي علاقة الآية بما قبلها.

ضربت : أي لزمت وثبتت - كالضرب بالختم فيترك أثرًا - ، الذلة : أي : ذلة التمسك بالباطل وإعطاء الجزية ، أين ما ثقفوا : أي : حيث ما وجدوا ، أي: ألزمهم الله الذلة والصَّغَار أينما كانوا فلا يأمنون .

حيث يجبروا بدفع الجزية : و هي مال يدفع مقابل الحصول على الأمان على النفس و المال و العرض ، وهذا فيه هوان وذلة لهم.

{ إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ } أي: لا يسلمون من الذلة في حال من الأحوال إلا في حال أن يكونوا معتصمين بذمة الله، وهو عَقْد الذمة لهم وضَرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة .

{ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ } أي: ذمة المسلمين وأمان منهم ولهم، كما في المُهَادَن والمعاهَد والأسير إذا أمَّنَه واحد من المسلمين ولو امرأة، وكذَا عَبْد، على أحد قولي العلماء.

قال ابن عباس: { إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ } أي: بعهد من الله و هي الجزية التي يدفعونها فيأمنوا ، وعهد و ذمة من الناس كما قال الرسول صلى الله عليه و سلم في فتح مكة فقال: من دخل بيت أبا سفيان فهو آمن.

وهذا يدل على أن الدعوة الإسلامية منهجها يمتاز بالمرونة و اليسر و السهولة.

وقوله: { وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ } الباء لتحقيق الغضب أي: أُلزموا فالتزَمُوا بغضب من الله، وهم يستحقونه { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المسكنة } أي: أُلزِموها قَدرًا وشَرْعًا و هي المذلة و الخضوع ،كما في رمضان يخفوا افطارهم ولا يحق لهم اظهار شعائرهم في بلد المسلمين و لا تبنى كنائس و لا معابد لهم .

- صفة الغضب لله المذكورة في الآية نثبتها ( كما أثبتها أهل السنة و الجماعة) : هي صفة كمال في حق المولى عز و جل ؛ لأنها لا تكون إلا لمن يستحقها، أما في حق البشر فهي صفة نقص ، و نثبتها له سبحانه كما تليق بجلاله و كما أثبتها لنفسه في كتابه و كما أثبتها له نبيه محمد صلى الله عليه و سلم من غير تأويل و لا تعطيل و لا تشبيه و لا تكييف ، صفة كمال في مقابلة من يستحقها .

**س/ ما العقوبة التي استحقوها؟**

ج/ 1- الذلة و الهوان. 2- استحقاق غضب الله. 3- ضربت عليهم المسكنة.

**- س/ ما سبب استحقاقهم لهذه العقوبات ؟**

- ج/ بسبب كفرهم بآيات الله ، و قتلهم الأنبياء بغير حق ، العصيان، التعدي .

قال سبحانه : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ } الباء سببية أي: وإنما حملهم على ذلك الكبْر والبَغْي وَالْحسَد، فأعْقَبَهم ذلك الذِّلة والصَّغَار والمسكنة أبدا، متصلا بذلة الآخرة، ثم قال تعالى: { ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } أي: إنما حَمَلهم على الكفر بآيات الله وقَتْل رُسُل الله والقائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كذلك أنّهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله، عز وجل، والغشيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله، فَعِياذًا بالله من ذلك، والله المستعان.

عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبيّ، ثم يقوم سُوق بَقْلهم في آخر النهار.

**وهذه الأسباب عامة يمكن أن تنطبق آثارها على كل قوم** ، فتحل عليهم العقوبة مثلهم .

- ثم استثنى الله الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب في قوله تعالى:

{ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آَيَاتِ اللَّهِ آَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (116) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)}

و إنصافاً للقلة الخيرة من أهل الكتاب يعود السياق عليهم بالاستثناء فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء ، و هذه علاقة الآيات بما قبلها.

**و في معنى هذه الآية قولان :**

- القول الأول: عن ابن مسعود في قوله تعالى: { لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ } قال لا يستوي أهل الكتاب وأمَّة محمد صلى الله عليه وسلم . و هذا القول كأنه يعتبر ( ليسوا سواء ) تابعة للآية السابقة ، و ( من أهل الكتاب) بداية جديدة.

ويؤيد هذا القول الحديثُ الذي رواه الإمامُ أحمدُ بن حنبل في مسنده ، عن ابن مسعود قال: أخر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة: فقال: "أَمَا إِنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الأدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرَكُمْ". قال: وأُنزلَت هذه الآيات: { لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ } إلى قوله { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } .

- والقول الثاني: هو المشهور و الراجح عن كثير من المفسرين - كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت فيمن آمَنَ من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سَلام وأسَد بن عُبَيْد وثعلبة بن سعْية وأسَيد بن سعْية وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، دل عليه قوله : ( منهم المؤمنون و أكثرهم الفاسقون ) ، ولهذا قال تعالى: { لَيْسُوا سَوَاءً } أي: ليسوا كلُّهم على حَدّ سواء فلا يتساون، بل منهم المؤمن ومنهم المُجْرم، ولهذا قال تعالى: { مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ } أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشَرْعه ، مُتَّبِعة نبيَّ الله، فهي { قَائِمَةٌ } يعني مستقيمة { يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ } أي: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم ، و السجود أكمل الاوضاع في التذلل إلى الله.

هنا معنيان لـ (قائمة) المعنى الأول: مستقيمة على شرع الله ، قيامها في الصلاة في الليل و الناس نيام وكلاهما صحيح.

**- لماذا عبر عن الصلاة بالسجود ؟**

لأنه أدل على كمال الخضوع ، ولذلك قال النبي - صلى الله لمن سأل مرافقته في الجنة لفرط محبته له : " أعني على نفسك بكثرة السجود"

مزايا هذه الأمة في هذه الآية:

1- أمة قائمة مستيقمة على شرع الله.

2 يتلون آيات الله و يكثرون منها - يقيمون الليل بالصلاة - يؤمنون بالله و اليوم الآخر - يأمرون بالمعروف - ينهون عن المنكر - يسارعون في الخيرات .

و هذا دافع لنا لنقتدي بهم وننال مثل أجرهم.

و الأجر المترتب على هذا، قوله تعالى: (و أولئك من الصالحين) في الدنيا و الآخرة ، فتصلح احوالهم في الدنيا و مكانهم في الآخرة

قوله : { يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ } وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ، وهذا هو الأجر المترتب على ذلك ، { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [الآية199] وهكذا قال هاهنا: { وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ } أي: لا يضيع عند الله بل يجزيكم به أوفر الجزاء. { وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } المتقون : هم أهل التقوى الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية ، فالله تعالى عليم بأحوالهم ، لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملا.

ثم قال تعالى مخبرًا عن الكفرة المشركين الذين تفاخروا بالأموال والأولاد مقابلة للمؤمنين و حالهم حيث قالوا : { نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين }ٍسبأ:35

فردّ الله عليهم بأنه { لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا } أي لا يُرَدّ عنهم بأس الله ولا يدفع عنهم عذابه إذا أراده بهم { وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } و لن تنفعهم أموالهم وإن كانوا قد أنفقوها في أعمال صالحة.

ثم ضرب مثلا لما ينفقه الكفار في هذه الدار، { مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ } أي: بَرْد شديد ، وقيل : بَرْد وجَلِيد. وقيل { فِيهَا صِرٌّ } أي: نار. وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد ولا سيّما الجليد يحرق الزروع والثمار، كما يحرق الشيء بالنار { أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ } أي: أحرقته، يعني بذلك السَّفْعة إذا نزلت على حَرْث قد آن جدَادُه أو حَصَاده فدمَّرَتْه وأعدَمَتْ ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعَدمَه صاحبه أحوج ما كان إليه. فكذلك الكفار يمحق الله ثوابَ أعمالهم في هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب ثمرةَ هذا الحرث بذنوب صاحبه. وكذلك هؤلاء بَنَوْهَا على غير أصْل وعلى غير أساس { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }.

أي : يضرون أنفسهم بالمعاصي فهؤلاء هم الذين اختاروا لأنفسهم الشر والضلال فإذا ذهب عملهم كله هباء إنما هو بظلمهم لأنفسهم لا بظلم الله لهم .

من آساليب القرآن الدعوية في هذه الآيات: التصوير التشبيهي ، لأن الملموس المحسوس أقوى في الفهم من المفهوم .

سورة التـوبـــة

قال تعالى:{(وَما كانَ المُؤمِنونَ لِيَنفِروا كافَّةً فَلَولا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرقَةٍ مِنهُم طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهوا فِي الدّينِ وَلِيُنذِروا قَومَهُم إِذا رَجَعوا إِلَيهِم لَعَلَّهُم يَحذَرونَ ﴿١٢٢﴾ يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا قاتِلُوا الَّذينَ يَلونَكُم مِنَ الكُفّارِ وَليَجِدوا فيكُم غِلظَةً وَاعلَموا أَنَّ اللَّـهَ مَعَ المُتَّقينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذا ما أُنزِلَت سورَةٌ فَمِنهُم مَن يَقولُ أَيُّكُم زادَتهُ هـذِهِ إيمانًا فَأَمَّا الَّذينَ آمَنوا فَزادَتهُم إيمانًا وَهُم يَستَبشِرونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ فَزادَتهُم رِجسًا إِلى رِجسِهِم وَماتوا وَهُم كافِرونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلا يَرَونَ أَنَّهُم يُفتَنونَ في كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَو مَرَّتَينِ ثُمَّ لا يَتوبونَ وَلا هُم يَذَّكَّرونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذا ما أُنزِلَت سورَةٌ نَظَرَ بَعضُهُم إِلى بَعضٍ هَل يَراكُم مِن أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفوا صَرَفَ اللَّـهُ قُلوبَهُم بِأَنَّهُم قَومٌ لا يَفقَهونَ ﴿١٢٧﴾لَقَد جاءَكُم رَسولٌ مِن أَنفُسِكُم عَزيزٌ عَلَيهِ ما عَنِتُّم حَريصٌ عَلَيكُم بِالمُؤمِنينَ رَءوفٌ رَحيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوا فَقُل حَسبِيَ اللَّـهُ لا إِلـهَ إِلّا هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَهُوَ رَبُّ العَرشِ العَظيمِ ﴿١٢٩﴾}

هنا يبين الله قاعدة مهمة يجب أن تكون في الأمم عامة و في الأمة المحمدية خاصة: قال ( و ما كان المؤمنون لينفروا كافة) أي: أنه لا يصح البتة في حال الحروب أن يخرج جميع القوم للقتال فهذا لا يستقيم عقلًا و منطقًا، و إن كان هذا قد حدث فهو خاص بموقعة دون غيرها و لأسباب معينة ولا يصح بأي حال تعميمه، و في التتمة يتضح القول أكثر .

قال تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)}

{ما كان } أي : ما استقام، فنفى أمر الاستقامة في حالهم اذا نفروا كافة ، فهذا بيان من الله تعالى لما أراد من نَفير الأحياء مع الرسول في غزوة تبوك، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا قال تعالى: { انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا } [التوبة: 41]، وقال: { مَا كَانَ لأهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ } نصت على الدعوة للنفير جميعهم [التوبة: 120]، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية ( و ماكان المؤمنون لينفروا كافة ) لأنه لا يستقيم حال المؤمنون اذا خرجوا كلهم .

فهذه الآيتان ( انفروا خفافًا و ثقالاً - مَا كَانَ لأهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ) نصت على ضرورة النفير جميعهم لمن استنفرهم الرسول في غزوة تبوك و بعدها لما أنزل الله الاية الأولى نسخ الآية الثانية التي فيها الأمر بالوجوب على الجميع ،وهذا فيه تخفيف للمسلمين.

فتبقى طافة لحراسة المدينة و لتسيير حوائج المسلين فلا تتعطل أمورهم و مصالحهم ، و تخرج للقتال طائفة أخرى .

و غزوة تبوك هيا الغزوة الوحيدة التي ذكرها الرسول صلى الله عليه و سلم للصحابة بأسبابها و مقصدها و غاياتها و دعا للنفير كافة خفافا و ثقالا كلٌ بما يستطيع.

وفي معنى هذه الآية قولان :

**- القول الأول:** إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفير المعين وبعده، صلوات الله وسلامه عليه، تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء.

**- والقول الثاني :** عن ابن عباس: { وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً } يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبي صلى الله عليه وسلم وحده، { فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ }: عصبة، يعني: السرايا، ولا يَتَسرَّوا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا، وقد تعلمناه. فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: { لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ } يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم { لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } .

الفرق بين القولين: أن الأول يتكلم عن الحكمة من خروج السرايا مع النبي : لتفقيه من فتحوا ديارهم و اذا رجعوا اخبروا اقوامهم بما استطلعوه من أخبار، و الثاني يتحدث عن الحكمة من بقاء طائفة في المدينة مع النبي صلى الله عليه و سلم . أما وظيفة الفريقين: التفقه في الدين و إنذار القوم ليحصل الحذر ، و كلا القولين يتظافران ولا يعارض أحدهما الآخر.

أما حكم النفير: فهو فرض كفاية على الآحياء إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين.

**أما الحكمة من هذا التقسيم:** ليتفقهوا في الدين ، و التفقه :هو معرفة أمور الدين من القرآن و السنة والأحكام الشرعية.

و لينذروا قومهم ، و الإنذارهو: التحذير لأخذ الحيطة و الحذر.

و هذا التقيسم يدل على أهمية الدعوة الى الله.

**و خلاصة تحقيق هذا ما يلي:**

1- ضرورة التفقه في الدين و معرفة أوامره و نواهيه.

2- جواز إستطلاع أخبار العدو و أخد الحذر و الحيطة ( التجسس على الأعداء).

بهذا تبين لنا أهمية الدعوة الى الله و أهمية بقاء طائفة لتلقي العلم الشرعي (القرآن و السنة ) من الرسول صلى الله عليه و سلم ، و تعليمهم من فاته العلم ممن خرج إلى الجهاد.

الموضوعات الدعوية في هذه الآيات:

1- أهمية الدعوة إلى الله.

2- الأحكام الفقهية: كجواز استطلاع أخبار العدو .

3- ضرورة أخذ الحيطة و الحذر.

و قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)}

- هنا يتبين لنا أفضل وسيلة للدفاع والحذر: و هي البدء بالهجوم و قتال الكفار، فنبدأ بالأقربون سواء في الدعوة أو القتال.

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الأقرب فالأقرب ؛ ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهْد الناس وجَدْب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته .

ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حَجَّة الوداع. ثم عاجلته المنية، صلوات الله وسلامه عليه، بعد الحجة بأحد وثمانين يوما، فاختاره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر، رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم. ورد شارد الدين وهو راغم. ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله. ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عَبَدَةِ الصلبان وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الله.

وكان تمام الأمر على يدي وصيّه من بعده، و ولي عهده الفاروق الأوّاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقًا وغربًا. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعدًا وقُربا. ففرقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي.

ثم لما مات شهيدًا وقد عاش حميدًا، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار. على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شهيد الدار. فكسى الإسلام بجلاله رياسة حلة سابغة. وأمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، فكلما عَلَوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالا لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ }

و هنا تتضح لنا طريقة التعامل مع الكفار :

- ضرورة البدأ في الجهاد بالهجوم فكما قلنا هي أفضل وسيلة للدفاع.

- أن الدعوة إلى الله تكون ابتدأوها من الأقرب فالأقرب.

- ضرورة مقاتلة العدو الأقرب لشدة خطره على الأمة الاسلامية .

- ضرورة الحيطة و الحذر في التعامل مع الأعداء .

**س/ لماذا يجب البدء بالأقرب في الدعوة إلى الله ؟**

ج/ إذا كانوا مؤمنين فهم أولى بالمعروف .

و إذا كانوا محاربين فلأنهم أشد خطر و أقرب إلينا ضرر، فيبدأ بهم لدفع ضررهم .

و قوله تعالى: { وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً } المراد بالغلظة : ما يشمل الجرأة والصبر والقوة و الشدة في القتال أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقا لأخيه المؤمن، غليظًا على عدوه الكافر،وقال تعالى في الغلظة مع الكفار أنها: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح: 29] ، وفي الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أنا الضَّحوك القَتَّال"، يعني: أنه ضَحُوك في وجه و انه منبسط السريرة مع اصحابه ، قَتَّال لهامة عدوه و شديد في التعامل معهم.

و هنا أمر مهم يجب توضيحه : وهو أنه ينبغي أن نعرف ويعرف الناس أن هذه الغلظة هي الغلظة على المحاربين فقط وفي حدود الآداب العامة ( فلا يقطع شجرها و لا ينتهك عرض نساؤهم و لا نتعدي على أشجارهم و لا يعتدى على بهائمهم وشيوخهم ونسائهم لأنهم لا دخل لهم في الأمر و هذا بالنسبة لغير المحاربين) أما مع المحاربين في حدود الآداب العامة : عدم تشويههم و تقطيعهم أشلاء و عدم سبهم و لعنهم ولا تنتهك أعراضهم و لا يحرموا من الطعام و الشراب و لا يمثل بهم ، و ليس المراد الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب ، فقتال المسلمين لأعدائهم قتال يسبقه إعلان وتخيير بين :

أ) إما قبول الإسلام . ب) أو أداء الجزية . ج) أو القتال .

فالذي يقتل و تكون معه الشدة و الغلظة المحارب فقط .

ومن وصايا النبي صلى الله عليه و سلم في آداب المعركة : عن بريدة رضي الله عنه قال كان رسول الله إذا أمّر الأمير على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : " اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ............الحديث "

فيبين الحديث أن هناك أخلاقيات مع الأعداء المحاربين و غير المحاربين ، فالغلظة في الآية ليست هي الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة غير المحاربين ، وليست تمثيلاً للجثث والأشلاء وإنما هي الشدة التي ترهب الأعداء من القوة والصبر والثبات

وقوله: { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.

فكل هذ الأمور التي يبنبغي فعلها و إمتثالها هي من التقوى ، فالتقوى هي : أن تجعل بينك و بين عذاب الله وقاية بإمتثال أوامره و إجتناب ما نهى الله عنه ، فالله يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور.

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة - خصص هذه القرون لتخصيص الرسول صلى الله عليه و سلم لهم- الذين هم خير هذه الأمة ، في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سَفال وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله سبحانه، الأمر من قبل ومن بعد. فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

و يتضح لنا من هذه الآيات أمور ينبغي العمل بها:

1- التدرج و مراعاة الأقرب فالأقرب سواء في دعوة الأعداء الى الإسلام أو في محاربتهم .

2- من أبرز صفات الداعية: الشدة و الغلظة مع العدو في الحرب و هي مع المحاربين و لاتشمل النساء و الأطفال فالواجب في التعامل معهم : الرحمة و الرفق بهم و كذلك ينبغي في التعامل مع المدعوين .

3- تقوى الله ؛ لأنه لا تصلح أمور المسلمين إلا بالتقوى .

و قوله تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125)} و هنا بين الله تعالى في هذه الآية من الذي يلي الكفار من الأعداء و هم المنافقون ، و بين لنا العدو القريب و كيف نتعامل معه و ما هي أوصافه بعد أن بين العدو الظاهر الكفر و هذه علاقة الآية بما قبلها.

وقبيل ختام السورة التي تحدثت كثيراً عن المنافقين ، تصور لنا هذه الآيات طريقة المنافقين في تلقي آيات الله وإلى جانبها صورة المؤمنين ، و كيف نتعرف على المنافقين ، و كيف نتعامل معهم.

فنتعرف عليهم من أقوالهم و أفعالهم .

**فمن صفات المنافقين القولية:**

يقول تعالى: { وَإِذَا مَا أُنزلَتْ سُورَةٌ } فمن المنافقين { مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا } ؟ أي: يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيمانا؟ على سبيل الاستنكار والاستهزاء ، وهو سؤال مريب يشعر بالتهوين من شأن السورة النازلة والتشكيك في أثرها في القلوب .

فيأتيهم الجواب الحاسم من الله تعالى: { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ }

أي : يستبشرون بنزولها لأنه سبب لزيادة إيمانهم ورفع درجاتهم . وفي هذا تعليم من الله لعباده المؤمنين كيفية التعامل مع المنافقين وكيفية الرد عليهم .

وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، وهو مذهب أكثر السلف و الخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد، وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول "شرح البخاري" رحمه الله ، و هذه من المسائل العقدية التي أنكرتها المعتزلة .

وقوله : { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ } مرض النفاق هو الشك و الريبة أي: زادتهم شكا إلى شكهم، وريبا إلى ريبهم، كما قال تعالى: { وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا } [الإسراء: 82]، وقال تعالى: { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ } [فصلت: 44]، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سيئ المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالا ونقصا.

**- ماذا بينت الآية وعلى ماذا دلت ؟**

بينت كيف حال المنافقين عندما تنزل الآيات و دلت الآية على أن الأرواح والقلوب تمرض ومرضها النفاق والمعاصي والأخلاق الذميمة ، وتصح هذه القلوب بالإيمان والعلم والأخلاق الحميدة .

و أتضح أمران عقديان من الآيات:

1- أن الإيمان يزيد بالطاعة و ينقص بالمعصية.

- أن القلوب تعتريها الأمراض ومن أشدها فتكًا بها النفاق و المعاصي.

وقوله : { وماتوا وهم كافرون } أي : استحكم ذلك فيهم إلى أن يموتوا عليه وهم مستمرون على الكفر .

بينت لنا الآيات كيفية التعامل مع المنافقين و إبراز أوصافهم القولية التي يسعون بها الى تشكيك المسلمين في دينهم استهزاءً و سخرية و استنكارًا ، و علمنا كيف نرد عليهم و نتعامل معهم إذ أن المسلم يكون قويًا واثقًا من أمر دينه ، يرد على إدعاءاتهم بقوة و برهان و من هذه الردود : قوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) و ( وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ)

و هذه الآيات تضمنت بعض أساليب الدعوة و هي:

1- أن الداعية ينبغي عليه أن يستخدم الأدلة و البراهين في الرد على أعدائه.

2- المقابلة بين المسلمين و المنافقين لأن الأشياء تتميز بضدها.

3- الوعد و الوعيد بزيادة المؤمنون إيمانًا الى إيمانهم ، و المنافقون رجسًا إلى رجسهم.

**ثم شرع في بيان أوصافهم الفعلية:**

فسأل سبحانه مستنكراً حال هؤلاء المنافقين الذين لا يعظهم الابتلاء ولا يردهم الامتحان فيقول :{ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127) }

يقول تعالى: أولا يرى هؤلاء المنافقون { أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ } الفتنة : الابتلاء و الاختبار أي: يختبرون بألوان من البليات من المرض والشدة مما يذكر الموت و الوقوف بين يدي الله { فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ } أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم.

قال مجاهد: يختبرون بالسَّنة و هي شدة القحط و الجفاف والجوع ، وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين.

وفي الحديث عن أنس: " لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا يزداد الناس إلا شحا، وما من عام إلا والذي بعده شر منه" ، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم.

يعني إزياد الأمر سوءًا من سيء إلى أسوء من هلاك زروع و كساد تجاة و هلاك المواشي و غير ذلك.

و قوله تعالى:{ وَإِذَا مَا أُنزلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ } هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، { نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ } أي: تَلَفَّتُوا، ويغمز بعضهم إلى بعض إنكاراً لها وسخرية بها ، أو غيظاً لما فيها من فضائحهم { هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا } أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه ( اي لا يستقيموا في أمر دينهم فيفروا فرار الأسد ).

و هنا تصوير لحال المنافقين: فإنه اذا نزلت الأيات خافوا أن تكون فاضحة لهم فكانوا يترقبوا ذلك من شدة خوفهم.

فحالهم كحال من يأبى سماع التذكرة والموعظة من الدعاة إلى الله وفرارهم كفرار الحمر من الأسد ، كما قال تعالى: { فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ } [المدثر: 49-51]، وقال تعالى: { فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ. عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ } [المعارج:36، 37]، أي: ما لهؤلاء القوم يتقللون عنك يمينا وشمالا هروبا من الحق، وذهابا إلى الباطل.

و في هذه الآيات يصور سبحانه و تعالى في صورة حية صفات المنافقين الفعلية .

وقوله: { ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } كقوله: { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } . [الصف: 5]

- هنا مسألة عقدية و هي : أن الله يقلب القلوب ، و أن الله لا يصرف العبد عن الدين و لا يهلكه إلا إذا عمل عملًا ترتب عليه هذا الجزاء كقوله تعالى: ( لما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ) فلا تنسب إلى الله إلا في حق من يستحقها، و هذا تعظيم لله جل و علا فهو حكم عدل لا يزيغ عبد إلا إذا هو زاغ فلا نذكرها إلا مقرونة كم قرنها الله ، و هذا من باب التأدب مع الله ، فالله عاقبهم بجنس أفعالهم ، حيث صرف الله قلوبهم عن الهدى عندما أعرضوا عن الحق ، وهم يستحقون ذلك لأنهم عطلوا قلوبهم عن وظيفتها .

{ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ } الباء سببية أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شده عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

و الآية السابقة ختمت بقوله تعالى: (و لا هم يذكّرون ) أي :لا يتوبون و هذه ختمت بـ ( لا يفقهون ) و كلاها تدل على سوء خاتمة و عاقبة المنافقين الذي أعرضوا عن آيات الله.

نسخلص مما سبق بعض أوصاف المنافقين الفعلية :

1- النظر إلى بعضهم بريبة و شك و استهزاء و سخرية.

2- لا يتوبون.

3- لا يذكرون.

4- لا يفقهون .

5- الاعراض عن الحق و الدين.

**- و من هنا نستبط أبرز صفات الداعية التي يجب ان يتصف بها :** قوة الملاحظة ، حتى يتمكن من معرفة أصناف المدعويين ليتمكن من التعامل مع كل صنف بما يناسبه، فالله تعالى يبين كيفية حال المنافين في أقوالهم فقال تعالى:)  وَإِذا ما أُنزِلَت سورَةٌ فَمِنهُم مَن يَقولُ أَيُّكُم زادَتهُ هـذِهِ إيمانًا فَأَمَّا الَّذينَ آمَنوا فَزادَتهُم إيمانًا وَهُم يَستَبشِرونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ فَزادَتهُم رِجسًا إِلى رِجسِهِم وَماتوا وَهُم كافِرونَ ﴿١٢٥﴾ **.**

و في هذه الآية التالية يبين أحوال المنافقين الفعلية، قال تعالى: (أولا يَرَونَ أَنَّهُم يُفتَنونَ في كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَو مَرَّتَينِ ثُمَّ لا يَتوبونَ وَلا هُم يَذَّكَّرونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذا ما أُنزِلَت سورَةٌ نَظَرَ بَعضُهُم إِلى بَعضٍ هَل يَراكُم مِن أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفوا صَرَفَ اللَّـهُ قُلوبَهُم بِأَنَّهُم قَومٌ لا يَفقَهونَ ).

ثم يقول الله تعالى ممتنًا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم، عليه السلام: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ } [البقرة: 129]، وقال تعالى: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ } [آل عمران: 164]، وقال تعالى: { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.

وقال جعفر بن محمد، عن أبيه في قوله تعالى: { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال صلى الله عليه وسلم: "خرجت من نكاح، ولم أخرج من سِفاح". من جنس البشر لم يكن جان ولا ملك ولا أعجمي ومن أبرز سا الدعوة التي هيأها الله لنا أن يكون من البشر و من جنسنا و بلغتنا ، فالانسان يصعب عليه ان يألف غيره غير المخلوق من الطين

**ختمت الآيات السابقة بإظهار منة الله على أمة محمد ، و هذه المنة تمثلت في إبراز صفات الرسول صلى الله عليه و سلم و هذه الصفات هي:**

الصفة الأولى: من أنفسكم : أي: من جنس البشر فلم يكن من الملائكة و لا الجان و كان عربيًا لا أعجميًا. فمن أبرز وسائل الدعوة التي سخرها الله لنا: أن يكون الرسول من جنسنا البشري و بلساننا العربي ، فهذا أدعى لحصول الألفة و المودة و التلقي. حيث يصعب التلقي من الملك و الجآن ، لإختلاف مادة الخلق و الطبيعة بينهم.

الصفة الثانية: عزيز عليه ما عنتم.

عزيز: أي يعز عليه الشيء ، و العنت هو: الشدة و المشقة.

فمعنى قوله تعالى: { عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ } أي: يعز عليه الشيء الذي يَعْنَتُ أمته ويشق عليها؛ ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: "بعثت بالحنيفية السمحة" وفي الصحيح: "إن هذا الدين يسر" وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه.

و معنى الآية: أنه يعز على الرسول صلى الله عليه و سلم و يشق عليه أن يرى أمته في عنت و شدة و مشقة ، و لذلك ما خير بين امرين إلا اختار أيسرهما ، و ذكر في الحديث : ( لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة) و في حديث الحج عندما سأله رجل : أفي كل عام يا رسول الله ؟ سكت رسول الله ثم قال الرسول صلى الله عليه و سلم : (لو قلت نعم لوجبت).

الصفة الثالثة: { حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ } أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

عن أبي ذر قال. تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علما - قال: وقال صلى الله عليه وسلم: "ما بقي شيء يُقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم".

و هذا من حرص الرسول - صلى الله عليه و سلم - على أمته فكان يبين لهم أبسط الأمور التي توصلهم إلى الجنة ، و من الأمثلة على ذلك :

- من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يبقى بينه و بين الجنة إلا الموت.

- من قال سبحان الله و بحمد مئة مرة غفر له ذنبه و حطت عنه مائة سيئة و رفعت له مائة حسنة.

و لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ( لأن يهدي بك الله رجلًا واحدًا أحب إليك من حمر النعم).

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لم يحرم حُرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مُطَّلَع، ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار، كتهافت الفراش، أو الذباب".

وقال ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ملكان، فيما يرى النائم، فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه. فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حُلَّة حِبَرَة فقال: أرأيتم إن ورَدت بكم رياضا معشبة، وحياضا رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم، فأوردهم رياضا معشبة، وحياضا رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضا هي أعشب من هذه، وحياضا هي أروى من هذه، فاتبعوني. فقالت طائفة: صدق، والله لنتبعنه وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه.

الصفة الرابعة و الخامسة: رؤوف - رحيم:

وقوله: { بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } كما قال تعالى ( و هذا من منهج ابن كثير في التفسير و هو: تفسير القرآن بالقرآن ) : { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ } [الشعراء: 215-217].

فهنا يصف الله تعالى الرسول صلى الله عليه و سلم بأنه رحيم رؤوف ، فكان يعطف على الجميع الصغير و الكبير و على ذوي الحاجات منهم حتى لو كان يهوديًا ، و هناك فرق بين الرأفة و الرحمة من حيث المعنى ، فكما قال ابن عاشور فيهما: (والرَّأفة: رِقَّة تنشأ عند حدوث ضر بالمرؤوف به. يقال: رؤوفٌ رحيم. والرَّحْمَة: رقَّة تقتضي الإحسان للمرحوم، بينهما عمومٌ وخصوص مطلق).

وهذه الصفات نثبت كمالها لله كما يليق به عز وجل ، و أما البشر نثبتها لهم في حدود البشرية.

وهذه الآية التي أوردها ابن كثير مرتبطة بما بعدها ارتباط وثيق ، حيث أن التولي لا يكون إلا عن عصيان

و أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية الكريمة فقال: { فَإِنْ تَوَلَّوْا } أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، { فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ } أي: الله كافيَّ، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: { رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا } [المزمل: 9].

أي: فإن عصوا و تولوا بعد معاملتك إياهم بالرحمة و الرأفة فقل ( حسبي الله ) و توكل عليه.

و هنا يرشد الله تعالى رسوله صلى الله عليه و سلم إلى خلق فضيل و هو: خلق العفو و التسامح و الإحتساب عند الله تعالى.

و العفو هو: ما يكون عند المقدرة ، و يسمى الإنسان عفوّ عندما يعفو و يكون قادر على أخذ حقه.

و الرسول صلى الله عليه و سلم ممن يعفو مع المقدرة ، و مثل هذا في حديث جبريل عندما قال للرسول صلى الله عليه و سلم : (إن شئت لأطبقت عليهم الأخشبين) فقال الرسول صلى الله عيه و سلم: (لا) فلم يكن الرسول صلى الله عليه و سلم يدعو على قومه، و إنما كان يقول: ( اللهم اهدي قومي فإنهم لا يعلمون).

و في هذه الآية أيضًا إرشاد للرسول بأن يتوكل على الله و أن يفوض كل أمره إليه ، فهو كافيه .

{ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وَقَدَره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

وعن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية: { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } إلى آخر السورة.

عن يحيى بن عباد، عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنه، قال: أتى الحارث بن خَزَمة بهاتين الآيتين من آخر براءة: { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } إلى عمر بن الخطاب، فقال: من معك على هذا؟ قال: لا أدري، والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتها وحفظتها. فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم -ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن، فضعوها فيها. فوضعوها في آخر براءة.

وقد تقدم أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، بجمع القرآن، فأمر زيد بن ثابت فجمعه. وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك. وفي الصحيح أن زيدا قال: فوجدت آخر سورة "براءة" مع خزيمة بن ثابت -أو: أبي خزيمة وقدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم.

وقد روى أبو داود، عن أبي الدرداء قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات،كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة.

**أبرز صفات الداعية التي ينبغي أن يتصف بها اقتداءً بالنبي صلى الله عليه و سلم:**

1- على الداعية أن يحرص على دعوة الناس بلغاتهم و هذا مستفاد من قوله تعالى: (من أنفسكم).

2- اتباع ارشاد الله لعباده (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت و هو رب العرش العظيم)

3- الإهتمام بأمور المسلمين فليس منا من لم يتألم لمواجع المسلمين (عزيز عليه ما عنتم).

4- الحرص على دعوة الناس إلى خالقهم و حصول الهداية لهم قدر الإمكان.

5- الرأفة و الرحمة بالمؤمنين، و الشدة و الغلظة مع الكافرين.

**سورة يوسف**

في اساليب الدعوة

قال تعالى: { وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنّي أَراني أَعصِرُ خَمرًا وَقالَ الآخَرُ إِنّي أَراني أَحمِلُ فَوقَ رَأسي خُبزًا تَأكُلُ الطَّيرُ مِنهُ نَبِّئنا بِتَأويلِهِ إِنّا نَراكَ مِنَ المُحسِنينَ ﴿٣٦﴾ قالَ لا يَأتيكُما طَعامٌ تُرزَقانِهِ إِلّا نَبَّأتُكُما بِتَأويلِهِ قَبلَ أَن يَأتِيَكُما ذلِكُما مِمّا عَلَّمَني رَبّي إِنّي تَرَكتُ مِلَّةَ قَومٍ لا يُؤمِنونَ بِاللَّـهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُم كافِرونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعتُ مِلَّةَ آبائي إِبراهيمَ وَإِسحاقَ وَيَعقوبَ ما كانَ لَنا أَن نُشرِكَ بِاللَّـهِ مِن شَيءٍ ذلِكَ مِن فَضلِ اللَّـهِ عَلَينا وَعَلَى النّاسِ وَلـكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَشكُرونَ ﴿٣٨﴾ يا صاحِبَيِ السِّجنِ أَأَربابٌ مُتَفَرِّقونَ خَيرٌ أَمِ اللَّـهُ الواحِدُ القَهّارُ ﴿٣٩﴾ما تَعبُدونَ مِن دونِهِ إِلّا أَسماءً سَمَّيتُموها أَنتُم وَآباؤُكُم ما أَنزَلَ اللَّـهُ بِها مِن سُلطانٍ إِنِ الحُكمُ إِلّا لِلَّـهِ أَمَرَ أَلّا تَعبُدوا إِلّا إِيّاهُ ذلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلـكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ ﴿٤٠﴾ يا صاحِبَيِ السِّجنِ أَمّا أَحَدُكُما فَيَسقي رَبَّهُ خَمرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصلَبُ فَتَأكُلُ الطَّيرُ مِن رَأسِهِ قُضِيَ الأَمرُ الَّذي فيهِ تَستَفتِيانِ ﴿٤١﴾}

قوله تعالى: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآَخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36)}

تتحدث هذه الآيات عن قصة من قصص الأنبياء ، و هو نبي الله يوسف عليه السلام، و القصص القرآني هو أحد اساليب الدعوة إلى الله ، و هذه القصة بالرغم من قصرها إلا أنها تتضمن اساليب عديدة في الدعوة إلى الله ، فعلى الداعية تعلمها و إتقانها ، كما ذكرت السورة بعض أوصاف الأنبياء و التي على الداعية السعي للإتصاف بها.

فتحكي لنا هذه الآيات قصة يوسف - عليه السلام - مذ دخوله السجن، و قد ورد في تفسير ابن كثير بعض الأقوال عن الفتيان اللذان دخلا معه ، و هي:

قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه.

قال محمد بن إسحاق: كان اسم الذي على الشراب "نبوا"، والآخر "مجلث".

قال السدي: وكان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه.

و هذه الأقوال منقولة من الإسرائيليات و لم تذكر في القرآن و السنة، حيث أن الله - تعالى - يجمل القصص في القرآن فيذكر لنا منها ما يفيد.

**و إذا قيل:**

- لماذا سأل الرجلان يوسف تحديدًا و لم يسألا أحدًا آخر؟

- لماذا سألاه في تأويل الرؤيا بالذات و لم يسألاه في أمر آخر؟

نقول : كان يوسف عليه السلام، قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث، وحسن السّمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن، تآلفا به وأحباه حبا شديدا، وقالا له: والله لقد أحببناك حبا زائدا. قال بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد إلا دخل عليّ من محبته ضرر، أحبتني عمتي فدخل علي الضرر بسببها، وأحبني أبي فأوذيت بسببه، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك، فقالا والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناما، فرأى الساقي أنه يعصر خمرا - يعني عنبا - وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود: "إني أراني أعصر عنبا".

**وقال الضحاك في قوله: { إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا } يعني: عنبا. قال: وأهل عمان يسمُّون العنب خمرا.**

وقال الآخر - وهو الخباز -: { إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ }

والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، وأنهما رأيا مناما وطلبا تعبيره.

فانتهز يوسف عليه السلام هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدة التوحيد ، فكونه سجيناً لا يعفيه من مهمة الدعوة إلى الله و تصحيح العقيدة ، و بهذا ضرب لنا مثلا في الحرص على الدعوة إلى الله.

ومن هنا نستنبط إسلوبًا دعويًا و هو: أنه على الداعية انتهاز الفرص المناسبة للدعوة إلى الله كما فعل نبي الله يوسف - عليه السلام -.

و قوله تعالى: {قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آَبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38)}

و بدأ يوسف - عليه السلام - مع صاحبي السجن من موضوعهما الذي يشغل بالهما بتأكيد فكرتهم عنه و يطمئنهما ويخبرهما بأنهما مهما رأيا في منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، و هذا الكلام لا يخرج إلا ممن وثق بما عند الله و توكل عليه .

قال مجاهد: يقول: { لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ } في نومكما { إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا } .

فلا بد من عزو النعم الى الله المنعم بها ، و هنا نبي الله عليه السلام ينسب كل النعم إلى الله من تاويل الرؤيا و النبوة و الهداية و غير ذلك، و كان هذا الحاصل من جميع الأنبياء و هو التبرؤ من الحول و الطول و عزو النعم كلها لله وحده.

**- و هنا سؤال طرحه ابن كثير و هو : لماذا علم الله يوسف تأويل الرؤيا ؟**

و الجواب هو: قال ابن عباس على لسان يوسف: إنما هو من تعليم الله إياي؛ لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر فهي مكافأة ، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا في المعاد. { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } يقول: وهجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع المرسلين، وأعرض عن طريق الظالمين فإن الله يهدي قلبه ويعلّمه ما لم يكن يعلمه، ويجعله إماما يقتدى به في الخير، وداعيا إلى سبيل الرشاد.

**- س/ لماذا بين لهما سبيل الحصول على هذا العلم ؟**

ج/ ترغيباً لصاحبيه في الإيمان والتوحيد ، وتنفيراً لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال.

و قوله تعالى: { مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ } هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، { مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا } أي: أوحاه إلينا، وأمرنا به من فضله وكرمه ومنّه ، { وَعَلَى النَّاسِ } إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ } أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل { بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ }.

وعن ابن عباس أنه كان يجعل الجد أبا، ويقول: والله فمن شاء لاعناه عند الحجْر، ما ذكر الله جدا ولا جدة، قال الله تعالى -يعني إخبارا عن يوسف: { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ }

و بعد هذه المقدمة التي تحدث فيها عن نعم الله عليه قال الله تعالى على لسانه :{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (40) }

بعد ذلك التمهيد الطويل يدخل يوسف عليه السلام خطوة خطوة في حذر ولين إلى قلبيهما فيفصح عن عقيدته ودعوته كاملاً ويكشف عن فساد اعتقادهما، ثم يبدأ بندائهما بهذا النداء اللطيف { يا صاحبي السجن} ثم إن يوسف عليه السلام، أقبل على الفتيين بأسلوب دعوي و هو الخطاب العقلي و الدعوي، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وَخَلْع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال مستفهماً:{ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } أي: الذي وَلِى كل شيء بِعزّ جلاله، وعظمة سلطانه.

ثم انتقل إلى منطق آخر فبين لهما أنَّ التي يعبدونها ويسمّونها آلهة، إنما هو جَهْلُ منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خَلَفهم عن سَلَفهم، وليس لذلك مستند من عند الله؛ ولهذا قال: { مَا أَنزلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } أي: حجة ولا برهان.

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كلَّه لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: ذلك الدين القيم أي: هذا الذي أدعوكم إليه من تَوحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } أي: لا يعلمون حقيقة هذا الدين ، فالذي يجهل بحقيقة الدين لا يوصف بأنه على الدين المستقيم ، فلهذا كان أكثرهم مشركين. { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } [يوسف: 103].وقال : { وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون }[يوسف : 106]

**الاساليب الدعوية:**

1- اسلوب النداء ( يا صاحبي السجن) ففيه لين و تحبب ونداء و تلطف بالمدعو و استرعاء لإنتباهه.

2- استخدام الخطاب العقلي و المنطق؛ لإقامة الحجج و البراهين.

3- أسلوب الإستفهام ( أأرباب متفرقون).

4- إثبات الحقائق و استخدام البراهين و الأدلة.

5- ذكر مقدمة و تمهيد قبل الدخول في صلب الموضوع.

6- إظهار نعم الله و فضله على عباده ؛ للترغيب في الدين الإسلامي.

و جعل يوسف - عليه السلام - سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وُصْلة وسببا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شرع في تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال فقال:

{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ(41) }

يقول لهما: { يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا } وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا، ولكنه لم يعينِّه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: { وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ } وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا، ففسرالخبز الذي رآه فوق رأسه بلحم و شحم الرأس، و هذا من علمه بالرؤيا

ثم أعلمهما أن هذا قد فُرغ منه، وهو واقع لا محالة؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبر، فإذا عُبِّرَت وَقَعت.

وقال الثوري قال: لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا ما رأينا شيئا. فقال: { قُضِيَ الأمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ }

وحاصله أن من تحلَّم بباطل وفَسّره، فإنه يُلزَم بتأويله، والله أعلم، وقد ورد في الحديث عن معاوية بن حَيْدة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعَبر فإذا عُبِّرت وقعت"

و من هنا نستنبط أنه إذا رأى أحد منامًا مزعجًا لا يفسره ، لأن الرؤيا على رجل طائر فمتى ما فسرت وقعت ، و إنما عليه : الإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم و النفث ثلاثًا على اليسار و عدم الإخبار بها ، و التحول عن شقه الذي كان نائمًا عليه.

و هنا استخدم يوسف اسلوب النداء و هو من الاساليب الدعوية و فيه تلطف مع الرجلان ، كما فيه بيان لكرم أخلاق يوسف - عليه السلام -.

و من أدعى أنه رأى رؤيا و فسرها فإنها تقع و إن لم تحدث في الحقيقة ، و هنا يتضح تلطف يوسف عليه السلام و لين اسلوبه فلم يوجه تفسير الرؤيا لأحد بعينه ، و إنما قاله بصيغة العموم و عدم التعيين ؛ حتى لا يحزنهما.

**الدراسة الدعوية للآيات:**

**أولًا :الموضوعات الدعوية للآيات:**

تضمنت الآيات بيان أهمية الدعوة إلى الله و أنها لا تتقيد أبدا بزمان و لا مكان، فهذا يوسف عليه السلام استمر في الدعوة الى الله بالرغم من كونه مبتلى بدخول السجن فلم يمنعه دخول السجن من التوقف عن الدعوة .

2- اغتنام الفرص في الدعوة الى الله حيث اتيحت الفرصة ليوسف عليه السلام لما سأله الفتيان عن رؤياهما.

**ثانيًا : صفات الداعية التي ينبغي أن يتصف بها:**

1- الاتصاف بالإحسان الذي هو أعلى درجات الإيمان ( أن تعبدالله كأنك تراه فإن لم يكن يراك فإنه يراك)

2- يلزم من الإحسان اتصاف المرء بحسن الخلق و حسن التعامل بلسانه وجوارحه مع حسن عبادته.

3 - الثقة بالله و حسن الظن به.

4- نسبة العلم و الخير إلى الله تعالى ، و التأدب و التواضع في التعامل مع الله .

5- شكر الله على نعمه في جميع الأحوال سبب لتحصيل الفضائل (ذلك من فضل الله علينا و على الناس)

6- اللطف و الرفق في الخطاب مع المدعوين (يا صاحبي).

7- اختيار العبارات المناسبة و الطريقة الملائمة في الدعوة تعد من فطنة الداعية و حكمته في الدعوة و هذا مطلب ضروري لتحصيل المقصد.

8- الصدق أمر ضروري في الحديث عمومًا و حتى في الرؤيا ، ذلك أن الفتيان لما علما بتأويل الرؤيا تراجعا عن قولهما و ذكرا أنهما كذبا في رؤياهما و لكن ذلك لم ينفعهم بشيء فقد تحققت الرؤيا.

**ثالثًا: اساليب الدعوة:**

1- اسلوب القصص و يعد من أنجح الاساليب المستخدمة، لتأثيره في النفوس و مناسبته لجميع الفئات العمرية.

2- البدء بالحديث عن تجربة حقيقية له أو لغيره، كما ذكر يوسف - عليه السلام - في سبب تحصله للعلم و أنه كان من فضل الله الذي هداه للحنيفية.

3- استخدام المنطق و خطاب العقل في الدعوة إلى الله مثل: (أأرباب متفرقون).

4- استخدام اسلوب الإستفهام التقريري ، مثل: (أأرباب متفرقون).

5- التدرج من الحقائق المسلم بها إلى القضية الأصلية و هي ضرورة إفراد الله بالعبادة ( ما تعبدون من دونه إلا اسماء سميتموها أنتم و آبائكم )( أمر ألا تعبدوا إلا إياه)

6- اسلوب النداء من الاساليب التي تجذب انتباه المدعو للحديث.

7- اسلوب الإيجاز و الاختصار مع البلاغة في الآداء؛ حتى لا تسأم النفوس.

8- اسلوب التنبيه للأخطاء الشائعة التي تكون سببًا للهلاك، كالإسراف و الكفران بنعم الله.

قال تعالى: { قُل هـذِهِ سَبيلي أَدعو إِلَى اللَّـهِ عَلى بَصيرَةٍ أَنا وَمَنِ اتَّبَعَني وَسُبحانَ اللَّـهِ وَما أَنا مِنَ المُشرِكينَ ﴿١٠٨﴾ وَما أَرسَلنا مِن قَبلِكَ إِلّا رِجالًا نوحي إِلَيهِم مِن أَهلِ القُرى أَفَلَم يَسيروا فِي الأَرضِ فَيَنظُروا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ مِن قَبلِهِم وَلَدارُ الآخِرَةِ خَيرٌ لِلَّذينَ اتَّقَوا أَفَلا تَعقِلونَ ﴿١٠٩﴾ حَتّى إِذَا استَيأَسَ الرُّسُلُ وَظَنّوا أَنَّهُم قَد كُذِبوا جاءَهُم نَصرُنا فَنُجِّيَ مَن نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأسُنا عَنِ القَومِ المُجرِمينَ ﴿١١٠﴾ لَقَد كانَ في قَصَصِهِم عِبرَةٌ لِأُولِي الأَلبابِ ما كانَ حَديثًا يُفتَرى وَلـكِن تَصديقَ الَّذي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصيلَ كُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ ﴿١١١﴾}

ففي قوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108)}

يقول الله لعبده ورسوله إلى الثقلين: الإنس والجن، آمرًا له أن يخبر الناس: قل يا محمد أن هذه الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها هي سبيلي، أي : طريقي ومسلكي وسنتي، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بَصِيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكلّ من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي.

**محور الآيات:**

1- بيان أهمية الدعوة الى الله وأنها سبب بعثة الأنبياء.

2- بيان منهج الأنبياء في الدعوة و اوصافهم.

3- بيان الهدف من سرد القصص القرآنية .

ابتدأت الآيات بـ (قل) و هذا اللفظ يدل على أن ما قيل بعدها مهم غاية الأهمية ، و لم يكن الرسول - صلى الله عليه و سلم - يتكلم من لدنه و إنما على علم من الله (إن هو إلا وحي يوحى) ، و من الأمثلة على ذلك : ما حدث في حادثة الإفك فلم يتكلم الرسول - صلى الله عليه و سلم- فيها بشيء حتى نزل عليه الوحي ، و على الداعية أن يقتدي بالرسول - صلى الله عليه و سلم - في ذلك و أن يحرص على طلب العلم و البحث عنه.

وقوله: { وَسُبْحَانَ اللَّهِ } أي: وأنزه الله وأجلّه وأعظّمه وأقدّسه، عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علوا كبيرا، { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [الإسراء: 44].

وقوله : { وما أنا من المشركين } وأنا بريء من أهل الشرك فلست منهم ولا هم مني .

**و من هذه الآية نستنتج عقيدة مهمة و هي: عقيدة الولاء لله و لرسوله و للمؤمنين و البراء من الكفر و أهله و من التشبه بهم ، و تنزيه الله عن الولد و عن كل ما لا يليق بجلاله و عظمته.**

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109) }

يخبر تعالى أنه إنما أرسلَ رسُلَه من الرجال لا من النساء. وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة: فالله تعالى لم يُوحِ إلى امرأة من بنات بني آدم وَحي تشريع.

وزعم بعضهم: أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ } الآية. وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى، عليه السلام، وبقوله تعالى: { وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ }

وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا: هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا؟ الذي عليه أئمة أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم: أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريمَ بنت عمران حيث قال: { مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ } [المائدة: 75] فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدّيقية، فلو كانت نبيّة لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن.

و من هنا نستنبط عقيدة وهي: أن من صفات الرسل - عليهم السلام - الذكورة، فلم يبعث الله نبية من النساء قط.

و الوصف الثاني للأنبياء: أنهم يأكلون الطعام.

و في هذا حكمة بليغة ، فكون النبي من جنس المدعويين أدعى لقربه منهم و حصول الألفة و الأنس و فيه سهولة للمدعوين للأخذ عنه، و هذا من فضل الله علينا.

وقال ابن عباس في قوله: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأسْوَاقِ } الآية وقوله تعالى: { وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ }.

و من هذا الوصف نستخلص عقيدة أخرى و هي: أن الأنبياء عليهم السلام يأكلون و يشربون و يتزوجون و يولد لهم و ما إلى ذلك من لوازم البشرية ، و بهذا دحض لقول كل من قال بأن الأنبياء ملائكة.

الوصف الثالث: أنهم من أهل القرى.

وقوله: { مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } المراد بالقرى: المدن، لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم أجفى الناس طباعا وأخلاقا. وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرقّ طباعا، وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون في البوادي؛ ولهذا قال تعالى: { الأعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ } [التوبة: 97]

**- لماذا بعث الله الرسل من أهل القرى والأمصار ؟**

ج- بعثهم من أهل القرى لأنهم أعقل وأعلم وأحلم ، ولأن القرى والأمصار مهيأة للإقامة وإجتماع أهل الفضائل وذلك أجدر بغزارة العقل وأصالة الرأي وحدة الذهن .

وقال قتادة في قوله: { مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود.

وفي الحديث : أن رجلا من الأعراب أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ناقة، فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد هممت ألا أَتَّهِبَ هِبَةً إلا من قرشي، أو أنصاري، أو ثقفي، أو دَوْسِي".

وقال ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم" .

وقوله: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرْضِ } يعني: هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ، { فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } أي: من الأمم المكذبة للرسل، كيف دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، كقوله تعالى: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }، فإذا استمعوا خبر ذلك، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه؛ ولهذا قال تعالى: { وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا } أي: وكما أنجينا المؤمنين في الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة أيضًا، وهي خير لهم من الدنيا بكثير، كما قال تعالى: { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشْهَادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } [غافر: 50 ، 51] .

وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: { وَلَدَارُ الآخِرَةِ } كما يقال: "صلاة الأولى" و"مسجد الجامع" و"عام الأول" و "بارحة الأولى" و"يوم الخميس".

- هذه الآية فيها لفت للأنظار لأخذ العظة و العبرة ممن سبق من الأمم.

{حتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110)}

يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى في أحوج الأوقات إلى ذلك، كما في قوله تعالى: { وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } ، وفي قوله: { كُذِبُوا } قراءتان :

- **إحداهما بالتشديد:** "قد كُذِّبُوا" ، وكذلك كانت عائشة، رضي الله عنها، تقرؤها.

روى البخاري: عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله: { حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ } قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ فقالت عائشة: كُذِّبوا. فقلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كَذَّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل، لعمري لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كذبوا؟ قالت معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، { حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ } ممّن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذَّبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك.

حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرنا عُرْوَة، فقلت: لعلها قد كُذِبوا مخففة؟ قالت: معاذ الله. انتهى ما ذكره .

وقال ابن أبي مليكة: أخبرني عروة عن عائشة: أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعد الله محمدًا صلى الله عليه وسلم من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أنَّ من معهم من المؤمنين قد كذَّبوهم. قال ابن أبي مليكة في حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها "وظنوا أنهم قد كُذِّبوا" مثقلة، للتكذيب.

- **والقراءة الثانية بالتخفيف** : عن ابن أبى مُلَيْكة قال: أن ابن عباس قرأها: { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا } خفيفة -قال : ثم قال لي ابن عباس: كانوا بشرًا وتلا: { حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة: 214]

واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس ما تقدم، وعن ابن مسعود، أنه قرأ: { حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا } مخففة، قال عبد الله: هو الذي تكره .

وهذا عن ابن مسعود وابن عباس، رضي الله عنهما، مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عباس فروي في قوله: { حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا } قال: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كَذَّبوهم، جاءهم النصر على ذلك، { فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ }

وعن إبراهيم بن أبي حُرة الجزرِيّ قال: سأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال له: يا أبا عبد الله، كيف هذا الحرف، فإني إذا أتيت عليه تمنيت أني لا أقرأ هذه السورة: { حَتَّى إِذَا اسْتَيأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا } ؟ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدِّقوهم، وظن المرسَلُ إليهم أن الرسل كَذَبوا. فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجل يدعى إلى علم فيتلكأ! لو رحلت في هذه إلى اليمن كان قليلا.

وروي من وجه آخر: أن مسلم بن يَسَار سأل سعيد بن جبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه، وقال: فرَّج الله عنك كما فَرجت عني.

- و في هذه الآية: بشارة لأتباع الأنبياء و الدعاة بالنصر و التمكين و هذه سنة الله في خلقه ، و استخدم القرآن اسلوبي البشارة و النذارة؛ لما لها من تأثير عميق في نفس المدعوين.

وعن تميم بن حَذْلَم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية: { حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ } من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كَذَبوا، بالتخفيف .

فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووجه المشهور عن الجمهور، وزيف القول الآخر بالكلية، وردَّهُ وأبَاه، ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم .

لما ذكر الله سبحانه هذه القصص كما كانت وحث على الاعتبار بها ، وأشار إلى سنته في إنجاء المؤمنين ، قال حثاً على تأمل هذه القصص والاستبصار بها .

{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولِي الألْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111) }

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين { عِبْرَةٌ لأولِي الألْبَابِ } وهي العقول، { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى } أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي: يكذب ويُختلق، { وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } أي: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير،

{ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ } من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور على الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: { هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد.

{لقوم يؤمنون } لقوم يصدقون بالقرآن وبما فيه من وعد الله ووعيده ، وخصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك .

وجاءت الآية الأخيرة من السورة دالة على أهمية الدعوة باسلوب القصص لما لها من تأثير سريع على مختلف الفئات العمرية.

**الدراسة الدعوية للآيات :**

**عللي (ما الغرض): لماذا ذكرت القصص في القرآن.**

ج/ 1- أخذ العظة و العبرة من عاقبة الأمم السابقة المكذبة و نجاة المؤمنين.

2- القصص دليل و معجزة من معجزات الأنبياء على صدقهم إذ أنها تعد من الأمور الغيبية.

3- ورود هذه القصة فيه هداية و رحمة للعباد و تبصير لهم ، ومن هنا كان على الداعية ضرورة الاستفادة من هذا الاسلوب في الدعوة إلى الله.

**- ما يستفاد من الآيات:**

1- بيان أهمية الدعوة الى الله و أنها هي المقصد من بعثة الأنبياء.

2- بيان منهج الأنبياء و اتباعهم في دعوتهم الى الله تعالى و أنها كانت على علم و بصيرة مع الولاءو البراء.

3- بيان أوصاف الأنبياء و منها: الذكورة - البشرية - من أهل المدن 4- متصفين بالعلم و العقل و الحلم و الحكمة.

4 - بيان لبعض الاساليب الدعوية الناجحة و التي لابد منها للداعية:

مثل: القصص - التحذير و التبشير - الدعوة الى النظر و التفكر و الاعتبار بمن حولهم و ما حل بهم من عاقبة .

**سورة النحل**

**في صفـــــــات الـــــــــــــدعــــــــــــاة إلى الله**

قال تعالى:{ادعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالحِكمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجادِلهُم بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبيلِهِ وَهُوَ أَعلَمُ بِالمُهتَدينَ﴿١٢٥﴾ وَإِن عاقَبتُم فَعاقِبوا بِمِثلِ ما عوقِبتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرتُم لَهُوَ خَيرٌ لِلصّابِرينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصبِر وَما صَبرُكَ إِلّا بِاللَّـهِ وَلا تَحزَن عَلَيهِم وَلا تَكُ في ضَيقٍ مِمّا يَمكُرونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّـهَ مَعَ الَّذينَ اتَّقَوا وَالَّذينَ هُم مُحسِنونَ ﴿١٢٨﴾}

قال تعالى: { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) }

تتضمن هذه الآيات موضوعين من مواضيع الدعوة و هي:

1- منهج الله الذي خطه الله في القرآن الكريم للدعاة .

2- صفات الدعاة التي ينبغي أن يتصفوا بها.

فقول الله تعالى: ( ادع ) فيه أمر بالدعوة ، و منه أن الدعوة واجبة ؛ لأنه جاء بصيغة الأمر ، و هذه الصيغة تضمنت كيفية الدعوة إلى الله سبحانه و تعالى ، و هذه الدعوة لابد أن تكون وفق منهجية رسمها الله و خطها للدعاة من الانبياء و المرسلين و اتباعهم ، و في هذه الآية خطاب للنبي - صلى الله عليه و سلم - و فيه الأمر بالدعوة إلى الله سبحانه ، و لكنه ليس خطاب خاص بالنبي - عليه صلوات الله و سلامه - وإنما خطاب موجه لأمته أيضًا فأمته تبعًا له في ذلك .

أما الأمر الآخر و هو كيفية و منهجية الدعوة إلى الله ، فهي تتضح في قوله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة)

1- الحكمة .

2- الموعظة الحسنة.

3- المجادلة بالحسنى.

فهذه مناهج ثلاث وضحها الله - سبحانه و تعالى - في الآية الكريمة للدعاة إلى سبيله بأبلغ و أوجز عبارة مع شمول و تمام معناها.

**أما الحكمة فهي:** الإصابة في القول و الفعل و تتجلى في عدة صور أمور و هي:

1- الحجج و البراهين و الأدلة القاطعة.

2- القدوة الحسنة.

3- النصح في السر دون العلانية ، و يصح علانيةً إذا كان الموضوع يهم الجميع.

4- النصح بحسب موضعه و الأولى فيه ، فإذا كانت حالات فردية و ليست شائعة فالأولى فيها الترك، أما إن كانت على مستوى مجتمع بأكمله يكون النصح علانية على الملأ.

5- النصح بالتعريض دون التصريح في مجابهة يهود أو شيعة.

و التصريح أحوج ما نكون إليه عند مجابهة و مجادلة من هم ليسوا مسلمين و لا هم من أهل السنة و الجماعة كاليهود و النصارى و الشيعة .

أما التعريض فيكون مع المسلم، حيث أنه من الممكن أن ينصلح أمره و يستقيم بمجرد التعريض، فنستخدمه مراعاة للمشاعره.

6- استخدام الشدة في موضعها و اللين في موضعه.

7- مخاطبة الناس على قدر عقولهم .

**فعلى الداعية أن يكون حكيم فطن يتخير المقال المناسب للمقام و المناسب للمخطاب.**

**المنهج الثاني**: الموعظة الحسنة.

**س/ ماهي الموعظة الحسنة؟**

ج/ هي العبر الجميلة و الرقائق المؤثرة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه و ذكرهم بها .

قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة { وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى.

(الموعظة الحسنة هي: الترغيب و الترهيب فيكون الوعظ للترغيب في ما عند الله سبحانه و تعالى من النعيم بما ذكر من قصص الأقوام السابقين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم وكانت عاقبتهم حسنة، و يكون الترهيب بذكر قصص أقوام ورد ذكرها في القرآن الكريم فكانت عاقبتهم وخيمة ، و تبيين ماهية تلك الأعمال التي كانوا يعملونها فأوردتهم بئس الموارد ، والتذكير بالنار و أوصافها و صنوف العذاب فيها).

- بعض من الناس قد يكون قادر على الوعظ ، لكن اسلوبه ليس بالحسن ، و الله تعالى عندما أمر بمنهج الوعظ قيده بقيد وشرط و هو: أن يكون في ذاته حسن فقال تعالى: { وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ }.

فلابد أن يكون موضوعها و عنوانها بدعوة حسنة (الدعوة الحق مما وضحه الله لنا من أمور الدين) ، و أن يكون اسلوبها حسن ، فالإرساليات التبشيرية موعظة لكنها ليست حسنة لأن موضوعها الإشراك بالله و الكفر به ، اما في الاسلوب أن يكون برفق و لين و تلطف و إحسان في العبارات و الألفاظ و اختيار الجمل البليغة المناسبة .

( أي: أن الموعظة لا تقوم إلا على الإحسان في الموضوع و الإحسان في الاسلوب (قولًا و عملًا) ).

**- و اختلف العلماء في هذه الواو ، هل هي على الترتيب أم على التخيير ؟**

و الصحيح انها على التخيير فيختار المنهج الذي يراه مناسبًا في كل موقف ، فالواو هنا ليست للإجبار باستخدام جميع المناهج و الاساليب ، و لا هي لاستخدامها على الترتيب ، و انما هي على التخيير ن فيختار الداعية المنهج الذي يراه مناسبًا للموقف.

**المنهج الثالث:** المجادلة بالتي هي أحسن:

**تعريف المجادلة:** المناظرة و المناقشة بين إثنين فأكثر لا بأس بزيادة العدد ، لدفع المرء خصمه عن قوله بحجة و برهان .

**و للجدال أركان و هي:**

الركن الاول: وجود شخصين فأكثر للحوار و المناقشة .

الركن الثاني: و جود قضية مطروحة للمناقشة و بها شبة.

الركن الثالث: وجود الحجج و البراهين ليصح الجدال، و إلا يعتبر جدال سقيم .

**و بهذا نستنتج أن للجدال قسمين و هما:**

1- جدال محمود: وهو الذي يقصد به اثبات الحق و ازهاق الباطل مع وجود الأدلة و البراهين.

2- جدال مذموم: هو الذي يقصد به اظهار الباطل و إزهاق الحق مع عدم الأدلة و البراهين.

وقوله: { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (أي: يكون الجدال مع من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فلا يكون مع أي شخص)، و شرطه بشرط و هو: أن يكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، و كان من منهج ابن كثير: التفسير بالمأثور و هو تفسير الآية بالآية أو بالحديث كما قال: قال الله تعالى: { وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ } فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: { فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى }.

**و للجدال آداب كثيرة جدًا و كلها تندرج تحت مسمى " أحسن" ، ومنها:**

صياغة العبارات صياغة جيدة - استعمال الأدلة و البراهين - حسن الاستماع و الإنصات و عدم المقاطعة - الكلام بروية وبدون رفع صوت و بدون سباب أو شتم .

و من الأمثلة على المجادلة بالتي هي أحسن: مجادلة إبراهيم عليه السلام للنمرود.

و نلاحظ هنا: بلاغة النص القرآني و جمعه للمعاني الكثيرة في الفاظ قليلة ، فعلى الداعية أن يستفيد من هذا و يستخدمه في الدعوة إلى الله.

وقوله: { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } أي: إن ربك يا محمد أعلم بمن عدل عن قصد السبيل وحاد الله ورسوله ، وهو أعلم بمن كان منهم سالكاً قصد السبيل وطريق الحق وهو مجازٍ جميعهم جزاءهم يوم الحساب .

- و بعد أن أرشد الله نبيه إلى استخدام المناهج الثلاثة في الدعوة إلى الله، يخبر رسوله بأن لا يحزن و لا يتضايق و لا تذهب نفسه عليهم حسرات بسبب من كفر منهم و أشرك بالله ، فأنت يا محمد لا تملك من الأمر و شيئًا و لا تهدِ من أحببت و إنما عليك البلاغ المبين فقط.

فقد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه مذ هم في بطون أمهاتهم، فادعهم إلى الله.

**س/ لماذا ختم سبحانه الآية بهذا القول بعد الأمر بالدعوة؟**

ج/ حتى لا تذهب نفس رسول الله - صلى الله عليه و سلم- على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، { إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } و { لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ }.

و بعد أن بين لنا الله تعالى المنهج و بين واجب الداعية بتأدية ما عليه من الدعوة إلى الله بين لنا بعض الصفات التي يحتاجها الداعية لتكون له عون في الدعوة إلى الله ، فقال تعالى: { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128) }

يأمر تعالى بالعدل في الاقتصاص والمماثلة في استيفاء الحق، وعن ابن سيرين: أنه قال في قوله تعالى: { فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } إن أخذ منكم رجل شيئًا، فخذوا منه مثله.

**و قال الشعبي في سبب نزول هذه الآيات: نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم: لنمثلن بهم. فأنزل الله فيهم ذلك.**

وقيل في سبب نزولها: عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد، قتل من الأنصار ستون رجلا ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لَنُرْبِيَنَّ عليهم (أي: نزيد على قتلهم في العدد و ليس بالمثل). فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا تعرف قريش بعد اليوم. فنادى مناد: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن الأسود والأبيض إلا فلانا وفلانا -ناسا سماهم- فأنزل الله تبارك وتعالى: { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نصبر ولا نعاقب" .

و هذه الآية تندب إلى العدل و المساواة في استيفاء الحقوق، و هذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية، و ممن يضرب فيهم المثل في هذه الصفة : عمر رضي الله عنه ، حيث قيل عنه: (عدل فأمن فنام).

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا } ثُمَّ قَالَ { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } وقال { وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ } ثُمَّ قَالَ { فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ } ، وقال في هذه الآية الكريمة: { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } ثُمَّ قَالَ { وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } فيذكر الله تعالى هذه الآية بعد الندب إلى العدل في أخذ الحقوق ، ليذكر بالصبر، و المقصود به هنا: العفو بعد القدرة على أخذ الحق، فيندب الله عباده مرة أخرى إلى العفو، فهو بمثابة الكفارة لهم ، و لما فيه من خير عظيم عائد عليهم جزاء لصبرهم، فكما قال تعالى: (فأجره على الله) فهو ليس محدد بجزاء أو أجر معين.

وقوله: { وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ } تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما ينال بمشيئة الله وإعانته، وحوله وقوته. و قد عبر الله عن العفو بالصبر، لأن كل عفو صابر، فهو يعفو و يصبر نفسه لينال الأجر من الله تعالى.

**و من هنا تظهر لنا بعض الصفات التي ينبغي عل الداعية أن يتصف بها و هي :**

1- العدل. 2- العفو عند المقدرة احتسابًا للأجر.

3- الصبر (و اصبر و ما صبرك إلا بالله) و العفو - عند المقدرة- دائمًا يتبعه صبر.

4- التعلق بالله في كل شيء. 5- تفويض كل الأمور لرب العالمين. 6- التقوى. 7- الإحسان .

فقد وعد الله من امتثل ذلك بأن الله سيكون معه، و معية الله تعني: النصر و التأييد و المعونة.

ثم قال تعالى: { وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } أي: على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قدر ذلك، { وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ} أي: غم { مِمَّا يَمْكُرُونَ } أي: مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظهرك ومظفرك بهم.

وقوله: { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة- للمؤمنين -، كقوله: { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا } ، وقوله لموسى وهارون: { لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى }، وقول النبي صلى الله عليه وسلم للصديق وهما في الغار: { لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا }.

و أما المعية العامة – لعامة الناس- فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }، وكقوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } و كما قال تعالى: { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }.

ومعنى: { الَّذِينَ اتَّقَوْا } أي: تركوا المحرمات، { وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم.

و هذه الآية تضمنت اسلوب الوعد للمؤمنين بأن الله سينصرهم و يؤيدهم بتأييده.

**الدراسة الدعوية للآيات:**

**تضمنت هذه الآيات موضوعين دعويين و هما:**

1- منهج الدعوة إلى الله تعالى و الذي انقسم إلى ثلاث أقسام و هي : الحكمة - الموعظة الحسنة - المجادلة بالتي هي أحسن.

2- أوصاف الدعاة الى الله: (العدل - العفو - الصبر - التعلق بالله في جميع الأمور - التقوى - الإحسان - تفويض جميع الأمور لرب العالمين)

**الاساليب الدعوية التي جاءت متضمنة في الآيات:**

الوعد بالنصر و التأييد و التمكين لعباد الله المسلمين .

**سورة نوح :**

قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4) } { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20)} { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالا (24) } { مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا (28) }

{إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (3) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (4) }

يقول تعالى مخبرا عن نوح، عليه السلام، أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم؛ ولهذا قال: { أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ } أي: بين النذارة، ظاهر الأمر واضحه ، و قد استمر نوح - عليه السلام- في دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، و هذه مدة طويلة جدًا لا يصبر عليها إلا أولو العزم من الرسل، حيث سموا بذلك لشدة صبرهم على قومهم و شدة عداوة قومهم لهم.

نستنبط من الآية الأولى عقيدة و هي: اثبات نبوة نوح عليه السلام (إنا أرسلنا نوحًا) فكان نوح رسول الله إلى قومه و هو أول رسل الله ، و سورة نوح من السور المكية، و تثبيت العقائد و تخليص النفوس من الشرك كان طابع السور المكية، فنجد أن سورة نوح نزلت في اثبات عقيدة إرسال الله رسلًا مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، و الله تعالى ابتدئ الآية بــ إن المشددة و التي هي لتأكيد ما بعدها، كما أن اقتران (نا) الدالة على الفاعلين يدل على تعظيم و تفخيم شأن المرسل و هو الله - جل جلاله - .

- و قوله تعالى: (إنا ارسلنا نوح إلى قومه) تدل على خصوصية رسالة جميع الرسل بأقوامهم و كذلك نوح - عليه السلام- بخلاف رسالة رسول الله محمد صلى الله عليه و سلم .

و بعد أن أكد الله و ثبت الرسالة لرسوله - نوح عليه السلام- أمره بإنذار قومه و لم يأمره بتبشيرهم، و ذلك لمناسبة الإنذار لحال قومه فيحذرهم و يخوفهم من عذاب الله؛ لأنهم كانوا قومًا كافرين، أما البشارة فإنها تكون للمؤمنين.

فالمقام مقام تحذير و انذار و تخويف، و الإنذار يكون قبل نزول العذاب ، فلا بد من إمهالهم بعد الدعوة زمنًا كافٍ قبل نزول العذاب، و هذا ما ينبغي على الداعية فعله ، لعل الله يهديهم سواء السبيل.

**الاساليب الدعوية التي استخدمها نوح - عليه السلام- :**

- التأكيد و الإثبات باستخدام الألفاظ المؤكدة في اللغة العربية ( كإنّ -المشددة- و نا الدالة على الفاعلين).

- الإثبات و التحقيق في مسألة الرسالة و النبوة (إنا أرسلنا نوحًا) و هي قضية عقدية.

- اثبات خصوصية رسالة جميع الرسل ما عدا رسالة محمد -صلى الله عليه و سلم- فهي عامة.

- استخدام اسلوب الإنذار، لأن المقام مقام إنذار و تخويف من عذاب الله -عز و جل- و ليس المقام مقام تبشير ، لأنهم قوم كافون بالله عز و جل.

- التفخيم و التعظيم لرب العالمين.

- اعطائهم فرصة زمنية كافية ، لمراجعة أنفسهم و ترك ملة الكفر و الخلوص من الشرك و أهله.

- (عذاب أليم) وصف العذاب بأنه أليم موجع ،فكما أن الجنة فيها ما لا عين رأت من النعيم فكذلك النار من العذاب و السعير.

- سرعة استجابة نوح - عليه السلام- فعدم وجود فاصل حتى بحرف واحد يدل على سرعة امتثاله و استجابته الفورية لأمر الله تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (2)) و هذا ما ينبغي أن يكون عليه المسلم فضلًا عن الداعية.

**و بطبيعة الفترة الزمنية لدعوة نوح -عليه السلام- تنوعت فيها الاساليب الدعوية لنوح -عليه السلام- ، فكان منها:**

- اسلوب النداء، فهو ملفت للانتباه فقال: (يا قومي) و لم يقل يا قوم و لا يا أيها الناس، و هذا في استرعاء لأسماعهم و فيه ترفق و لين بهم و يدل على انتمائه لهم، فأنتم معي و أنا منكم و معكم و لكم ، و هذا فيه لتطف و لين، و هي من الاساليب الدعوية التي ينبغي على الداعية عدم اغفالها.

- استخدام اسلوب الإنذار، فكما سبق و قيل: أن المقام مقام إنذار؛ لان القوم مشركون كافرون ولأن ما أمر به هو: الإنذار، فعلى الداعية أن يتخير الاساليب المناسبة لمقامه.

- ينبغي على الدعاية أن تكون دعوته على منهج بين واضح تقبله الفطرة و العقل السليم فلا يعرض عنه إلا من كانت فطرته منتكسة متشوهة، فلا حاجة للعبارت الفلسفية و لا السجعية و لا التكلف في الألفاظ، و قد كان منهج نوح - عليه السلام- في الدعوة بيّن واضح أشد وضوح.

**ثم بدأ يفصل حقيقة هذا المنهج البيّن الواضح، فقال :**

1- { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ } أن هنا: تفسيرية: أي موضحة مبينة مفسرة له لما بعدها، و تكون عبادته بإخلاص العبادة لله و حده لا شريك له، فلا يشرك به أحدًا لا في الربوبية و لا الألوهية و لا في اسمائه و صفاته.

2- { وَاتَّقُوهُ } أي: اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه، و التقوى هي: أن تجعل بينك و بين عذاب الله وقاية بفعل الواجبات و ترك المحرمات.

3- { وَأَطِيعُونِ } فيما آمركم به وأنهاكم عنه ( اتباع نهج الأنبياء - عليهم السلام- ).

فإذا أطعتموني، كان جزاؤكم:

**1-** { يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ } أي: إذا فعلتم ما آمرتكم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم، غفر الله لكم ذنوبكم، و هذا من اسلوب القرآن الكريم، حيث قابل الإنذار بالتبشير، و يقابل الترهيب بالترغيب و غير ذلك.

**و المغفرة هي:** العفو و محو الذنوب و ازالته.

**س/ ما نوع "من " في قوله { يغفر لكم من ذنوبكم }؟**

(من) هاهنا قيل: إنها زائدة (حسب التفسير بالرأي، و قالوا به : لأن الله يجب كل ما كان من العبد قبل الإسلام) ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل، ومنه قول بعض العرب: "قد كان من مطر".

وقيل: إنها بمعنى "عن" و هذا الأولى تقديره: يصفح لكم عن ذنوبكم كلها بلا استثناء ، فكأنها لم تكن واختاره ابن جرير .

وقيل: إنها للتبعيض، يغفر لكم الذنوب العظام التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام. و هذا الرأي مرجوح و غير صحيح.

**2-** { وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } و هذا هو الوعد و البشارة الثانية إن هم آمنوا، و المعنى: يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه، أوقعه بكم.

و قد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم، يزاد بها في العمر حقيقة؛ كما ورد به الحديث: "صلة الرحم تزيد في العمر".

**و هنا قضية مهمة من قضايا العقيدة و هي: هل الأعمار تزداد حقيقة؟**

ج/ اختلف العلماء في هذه القضية ، فمنهم من قال:

القول الأول: أن عمر الإنسان يزداد زيادة حقيقية، فإن عمل الإنسان بعمل الصالحين كان عمره ستين و إن عمل بعمل أهل الفساد كان عمره خمسين. (بحسب عمله)، و اجتهد بعض العلماء في شرح الآحاديث ذات العلاقة فقالوا: بأنه يوضع له أجلين، أجل إن هو عمل بعمل أهل الصلاح و أجل إن عمل بعمل أهل الفساد ، و كله مكتوب في كتاب عندما يكون جنينًا في رحم أمه.

القول الثاني: المراد بالزيادة: زيادة معنوية و هي البركة في الأعمار، فيعمل أعمال مضاعفة كما لو كان عمره ستين.( يعمل أضعاف ما ينجزه غيره في نفس المدة). و أكثر العلماء على هذا القول.

وقوله: { إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر الله تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات.

تؤكد هذه الآية قضية البركة في الأعمار، لأن الأعمار مكتوبة مقدرة من الأزل و قد كتبها الله في كتابه ، فإذا علم الإنسان أن عمره مكتوب و أنه إذا جاء أجله لا يؤخر حثه ذلك على الإسراع و المبادرة بالعمل الصالح، و في ذلك بشارة لكنها مقترنة بالترهيب بعدم الركون و الاعتماد على شيء فلا بد من المسارعة و العمل لليوم الآخر.

و في هذه الآية أيضًا: إثبات عقيدة القضاء و القدر و أن المقادير مكتوبة لا تتبدل و لا تتغير، فقضاء الله نافذ لا يرده شيء.

و بعد مرور سنين طوال من دعوة نوح -عليه السلام- مع قومه مستعملًا فيها الإنذار و التبشير و الترغيب و الترهيب و استنفاذ جميع الطرق و الوسائل، لم يجد منهم إلا الكفر و الإصرار على الشرك فلم يؤمن منهم إلا القليل، حينها رفع شكواه إلى العلي القدير و هذا ما ينبغي أن يكون عليه المسلم، فلا يشكو إلى أحد غير الله.

و لا بأس بالإستعانة بمن يملك رفع الظلم أو تغيير المنكر في حدود ما يستطيع، أما الشكوى لغير الله من أجل التضجر و التسخط على قدر الله فهذا لا يجوز، و هو ليس من سيم المسلمين.

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (20)}

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، أنه اشتكى إلى ربه عز وجل، ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم، فقال: { رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا } أي: لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، امتثالا لأمرك وابتغاء لطاعتك.

- بيان ضرورة تفويض الأمور إلى الله و عدم الاستعانة بالبشر إلا فيما يقدرون عليه.

- ليس للدعوة زمان ولا مكان محدد، و انما حسب ما يراه الداعية مناسبًا، و مراعاة لأحوال جميع الناس كان نوح يقوم بالدعوة ليلًا و نهارًا، و بهذا كان من أولي العزم من الرسل.

و قوله تعالى: { فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا } أي: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فَروا منه وحَادُوا عنه. { وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ } (و هذا يدل على أنه كان هناك تكرار للدعوة) قد كان يرغبهم فيما عند الله من الغفران و دخول الجنة ، لكنهم سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه ، ( و قوله: " أصابعهم" هو من باب ذكر الكل و إرادة الجزء (اصبع واحد) مبالغة في وصف إعراضهم حتى عن سماع حرف واحد، و هذه قاعدة في علوم القرآن و عكسها صحيح ). و كما أخبر تعالى عن كفار قريش: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ }.

{ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ } قال ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم. وقال سعيد بن جبير: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول.

{ وَأَصَرُّوا } أي: استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع، { وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا } أي: واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له.

و كرر لفظ الإستكبار ؛ لأنه سبب رئيسي في خروج كثير من الناس عن الدين و سبب في كفرهو و شركهم ، و سبب لإعراض أهل المعاصي عن الإستجابة، و سبب لخروج إبليس من الجنة، فالكبر صفة ذميمة و لا يأتي بخير أبدا، فعلى الدعاة أولًا و على المسلمين ثانيًا الإبتعاد عنها و الحذر أشد الحذر من الإتصاف بها.

و هنا تظهر لنا أهم أسباب هذا الإعراض و الإستمرار على الذنوب و هي: الإستكبار عن دين الله و عن الحق - الإصرار على المعاصي و الكفر - الفرار و الإعراض و الخذلان و الطبع على قلوبهم نتيجة استكبارهم .

**فمن أبرز الصفات التي يجب على الداعية تجنبها و الحرص على نقيضها:**

- الإصرار على المعاصي و الخطأ.

- الكبر و الغرور.

- أن لا يتسبب في خذلان الله له بسبب كفره و معاصيه.

و قوله تعالى: { ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا } الجهر: أي جهرة بين الناس.

{ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ } الإعلان: كلاماً ظاهراً بصوت عال، { وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا } أي: فيما بيني وبينهم، فنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم.

**هناك فرق بين الجهر و الإعلان و هو:**

- أن الجهر يكون على مجموعة محددة متجمهرة بذاتها، كما كان يفعل ابن مسعود - رضي الله عنه - يذهب إلى نوادي قريش و يقرأ القرآن على مسامعهم.

- الإعلان : يطلب الداعية فيه اجتماعهم لينذرهم ، و هو كما في فعل الرسول - صلى الله عليه و سلم- على جبل الصفا.

و في الجميع جهر و إنذار.

- الإكثار من التأكيد ، فما زال نوح - عليه السلام - يشكو إلى الله و يؤكد على أنه استنفذ كافة الوسائل ( إني ).

{ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا } أي: ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك . ولهذا قال: { فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا } دارة كثيرة الدر و ذلك مثل قول: ضرع دار، و المعنى: متواصلة الأمطار. ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية. وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: أنه صعد المنبر ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار. و في هذه الآية أيضًا تثبيت للعقيدة الإسلامية و ذلك أن من اسماء الله تعالى الغفار، و هذا من اساليب الترغيب في الدين الإسلامي فلم يقتصر على الترهيب فقط.

و لم يقتصر بالأمر بالإستغفار للدخول في الإسلام و إنما بدأ يذكر فوائد و ثمار الاستغفار ترغيبًا لهم:

1- مغفرة الله لهم في الدنيا و الآخرة ، ففي الدنيا ( يرسل السماء عليكم مدرارًا، قال تعالى:{ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا } ( أي: مطر كثير) ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي ستنزل بها المطر.

2- وقوله: { وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ}.

3- { وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا } الجنات: البساتين، أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وَأَدَرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها.

و لم يحدد الله أين ستكون هذه الجنات في الدنيا أم الآخرة و لكنها ستكون بإذن الله في الدارين.

فالله وصف الجنة أيضأ بأنها ذات أنهار ، أنهار من عسل و أنها من خمر و أنهار لبن و غير ذلك من ألوان النعيم.

و هذا المقام مقام دعوة بالترغيب، ثم عدل به إلى دعوتهم بالترهيب مستخدمًا في ذلك اسلوب خطاب العقل و استعمال المنطق في الحوار و استعمال الاستفهام، فقال: { مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا } أي: عظمة ، قال ابن عباس : لا تعظمون الله حق عظمته، أي: لا تخافون من بأسه ونقمته.

فقد قال: { وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا } قيل: معناه من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة. قاله ابن عباس .

فبعد أن لفت أنظارنا إلى خلق أنفسنا ، لفت أنظارنا إلى خلق ما حولنا من سماء و أرض و ما فيهما، فقال - جل و علا- : { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا } أي: واحدة فوق واحدة، و الدركات طبقة تحت طبقة، و الطبقات طبقة فوق طبقة، و استخدم في هذه الآية : اسلوب الإستفهام و اسلوب لفت الأنظار إلى مخلوقات الله ابتداءً بخلق الإنسان ثم خلق السماوات ثم ما خُلق فيهن، فقال: { أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا } فالقمر بضيائه و الشمس بوهجانها، و لم يقل الشمس (نورًا) لأن فيه اشعاع و توهج شديد و حرارة، أما القمر: ففيه نور لكنه خافت هادئ و بدون حرارة، و الشمس و القمر آيتان من آيات الله كافيتان في الدلالة على ربوبيته و وحدانيته.

و معنى الآية في تفسير ابن كثير: أي فاوت بينهما في الاستنارة فجعل كلا منهما أنموذجاً على حدة، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدر القمر منازل وبروجا، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع في النقص حتى يستسر، ليدل على مضي الشهور والأعوام، فهو خير معين على حساب الأيام والشهوو و السنين، و تعاقب الفصول الأربعة كما قال: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }.

وقوله: { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأرْضِ نَبَاتًا } في البعث و النشور هذا اسم مصدر، والإتيان به هاهنا أحسن، و عبر بهذا اللفظ : لأن أصل خلقة الإنسان من الطين و هو من الأرض، { ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا } أي: إذا متم فتكون هناك حياة البرزخ { وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا } أي: يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة، كالزرع حين ينبت، فينبت الناس من عظمة تسمى: (عجب الذنب) و هي ما تسمى الآن بالعصعص و هي في آخر العمود الفقري. و هذا من إعجاز الله في خلق الإنسان، و مما هو معروف بضرورة العقل أن الخلق الثاني أسهل و أهون من الخلق الأول، و هذا مما يدلل على عقيدة البعث و الجزاء.

و في هذه الآيات: إثبات لعقيدة اليوم الآخر و عقيدة البعث و الجزاء.

و قوله تعالى: { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ بِسَاطًا } أي: بسطها ومهدها وقررها وثَبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات، و هذه آية أخرى من آيات الله العظيمة التي لفت نوح أنظار قومه إليها ، و هي جعل الأرض ممهدة للعيش عليها.

و هذا فيه تدرج من الأعلى إلى الأسفل؛ لمناسبة طبيعة خلق الإنسان، فهو دائمًا ينظر إلى الأعلى أولًا و لهذا بدأ بالسماء ، ثم بخلق الإنسان ثم بخلق الأرض و أنها جعلت ممهدة ، ليتيسر التنقل على ظهرها و تسهل الصنائع و الأعمال و يسهل كسب العيش و السكنة فيها، فلو كانت بلا ماء و لا هواء لن نستطيع العيش بها ، وهذا كله من استخلاف الله لنا في الأرض، فنعبده حق عبادته و لا نشرك به شيئًا.

{ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا } أي: خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم، من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرزاق، جعل السماء بناء، والأرض مهادا، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد؛ لأنه لا نظير له ولا عَديل له، ولا ند ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير.

فاستخدم نوح - عليه السلام - اسلوب لفت الأنظار ثم استخام الأدلة الكونية و العقلية و استخدام اسلوب خطاب العقل و استعمال المنطق. و استخدام أكثر من حاسة ( النظر و العقل و التفكير) في آن واحد يزيد من الاستيعاب ، و هذا ما فعله نوح عليه السلام .

و ما زال نوح - عليه السلام- يرفع الشكوى إلى الله تعالى و يخبره بأنه استنفذ كافة الاساليب مع قومه و أقام الحجة عليهم، و لكنهم ما زالوا مصرين على كفرهم، حيث قال الله على لسانه: { قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالا (24)}

فهنا يخبر الله عن نوح عليه السلام، أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة المتشملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى: أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام؛ ولهذا قال: { وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا } قُرئ { وَ وُلْدُهُ } بالضم وبالفتح، وكلاهما متقارب. فكانوا أصحاب أموال و أولاد و أعمار طويلة، و مع هذا تركوا دين الله و استهزؤوا به .

وقوله: { وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا } قال مجاهد: { كُبَّارًا } أي عظيمًا. وقال ابن زيد: { كُبَّارًا } أي: كبيرا. والعرب تقول: أمر عجيب وعُجَاب وعُجَّاب. ورجل حُسَان. وحُسَّان: وجُمَال وجُمَّال، بالتخفيف والتشديد، بمعنى واحد. و صفه الله بانه كبير

والمعنى في قوله: { وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا } أي: باتباعهم في تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى، كما يقولون لهم يوم القيامة: { بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا } [سبأ:33]

ولهذا قال هاهنا: { وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا } فيوضح هنا ماذا كان مكرهم و هو: (وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ).

قال البخاري:عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما وَد: فكانت لكلب بدومة الجندل؛ وأما سواع: فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطَيف بالجُرُف عند سبأ، أما يُعوقُ: فكانت لهَمْدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآل ذي كَلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم عُبِدت .

وعن أبي المطهر قال: ذكروا عند أبي جعفر - وهو قائم يصلي-يزيد بن المهلب، قال: فلما انفتل من صلاته قال: ذكرتم يزيدَ بن المهلب، أما إنه قتل في أول أرض عُبد فيها غيرُ الله. قال: ثم ذكر ودًا -قال: وكان وَدٌّ رجلا مسلما وكان محببا في قومه، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جَزَعهم عليه، تشبه في صورة إنسان، ثم قال: إني أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكونَ في ناديكم فتذكرونه؟ قالوا: نعم. فصُوِّر لهم مثله، قال: ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه. فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالا مثله، فيكون له في بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم. قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به، قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به، قال وتناسلوا ودَرَس أمر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم، فكان أول ما عبد من غير الله: الصنم الذي سموه وَدّا.

و هنا يظهر اسلوب دعوي ينبغي على الداعية استخدامه و هو: التفصيل بعد الإجمال، فأجمل المكر و وصفه بأنه مكر كبير ، ثم بين لنا ماهية هذا المكر، فقال:( وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا).

و قد تكرر نفس الاسلوب في قوله: (لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ) ثم فصل أسماء هذه الآلهة الخمسة.

و يتابع نوح -عليه السلام- وصف قومه بأنهم: عصوه (العصيان)- اتبعوا المنفرين أصحاب الكيد و المكر (التحريض على الكفر) و(المكر) - أضلوا كثيرًا (الضلال) - الظلم (ولا تزد الظالمين إلا ضلالًا).

وقوله: { وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا } يعني: الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرًا، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم. وقد قال الخليل، عليه السلام، في دعائه: { وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ }

وقوله: { وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالا } دعاء منه على قومه بعد أن أيقن أنه لن يؤمن إلا من آمن لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون ومثله في قوله: { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الألِيمَ } [يونس: 88] وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به، و هذه سنة الله في خلقه و هي نصرة أهل الحق و خسران أهل الباطل مهما طال ظلمهم.

{ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (25) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا (28) }

كانت الدعوة الأولى: بزيادة ضلالهم { وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالا } و الضلال هو: الزيغ و الإنحراف عن الحق، و هذا نتيجة لاتصافهم بتلك الصفات.

و الدعوة الثانية: لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، حتى لا يضلوا من يأتي بعدهم، و هذا وفق إحدى قواعد الدين و هي: سد الذرائع.

و الدعوة الثالثة: و لا تزد الظالمين إلا تبارًا.

يقول تعالى: { مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ } وقرئ: { خَطايَاهُمْ }أي: بسبب خطيئاتهم { أُغْرِقُوا } أي: من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم في الدنيا { أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا } أي: نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار، و عقبها الله بالفاء لأن العذاب يبدأ من البرزخ { فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا } أي: لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجير ينقذهم من عذاب الله لأنهم كانوا ينفروا عن دعوة الحق، و هي كقوله: { قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ } [هود: 43].

{ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } أي: لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا ولا دياراً وهذه من صيغ تأكيد النفي.

قال الضحاك: { دَيَّارًا } واحدا. وقال السُّدِّي: الديار: الذي يسكن الدار.

فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه، وقال: { سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } [هود: 43] .

عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو رحم الله من قوم نوح أحدا، لرحم امرأة، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها. فلو رحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة".

وقوله: { إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ } أي: إنك إن أبقيت منهم أحدًا أضلوا عبادك، أي: الذين تخلقهم بعدهم { وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا } أي: فاجرًا في الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما.

فسدًا للذرائع بأن لا تكون هناك ذرية كافرة، دعا عليهم بالهلاك ، حيث أن النتيجة حتمية باتباع الإبن لدين أبيه، و لا سيما إن حرص الآباء على ذلك.

و بعد أن أنهى نوح شكواه إلى الله تعالى، دعا ربه بدعوتين: الأولى: لمن آمن معه، و الثانية: تأكيد لدعواه على الكافرين، و التي كانت الدعوة الثالثة فيما سبق.

فقال: { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا } قال الضحاك: يعني: مسجدي، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن، وقد قال

عن أبي سعيد الخدري :-أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تصحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي". و هنا يعلمنا ادب الدعاء و هو البدء بالداء للنفس ثم الوالدان

وقوله: { وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يَعُم الأحياءَ منهم والأموات؛ ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء، اقتداء بنوح، عليه السلام، وبما جاء في الآثار، والأدعية المشهورة المشروعة.

وقوله: { وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا } قال السدي: إلا هلاكاً. وقال مجاهد: إلا خساراً، أي: في الدنيا والآخرة. فأعظم نصيب يتلقاه الإنسان هو: دخول الجنة في الآخرة.

**و هنا يتضح لنا منهج الأنبياء في الدعاء:** و هو البدئ في الدعاء بالدعاء للنفس، ثم للوالدين أصحاب الفضل الأكبر على الإنسان، ثم الدعاء لجميع المؤمنين و المؤمنات في أي زمان و مكان.

فعلى الداعية و على جميع المسلمين الإقتداء بالأنبياء في ذلك، فيدعون و يسلمون على من يعرفون و من لا يعرفون، ففي ذلك الشيء الكبير من الرحمة و الرأفة بالمسلمين، و هذا مما ينبغي على الداعية أن يحرص عليه.

**الدراسة الدعوية للآيات:**

**- المناهج الدعوية التي استخدمها نوح عليه السلام في دعوته لقومه:**

1- المنهج العاطفي و مخاطبتهم باللين و الترفق، مثل:(يا قومي - الإنتساب لقومه و مناداتهم).

2- المنهج الحسي: في تذكيرهم بما أنزل الله عليهم من النعم (يرسل السماء عليكم مدرارًا) و غيرها من النعم التي يتحصل عليها الإنسان و يدركها و يراها .

3- المنهج العقلي: بمخاطبة العقل و لفت الأنظار إلى ما في الكون ( ما لكم لا رتجون لله وقارًا و قد خلقكم أطوارًا) .

**- الصفات التي ينبغي أن يحرص عليها الداعية:**

1- الصبر و المجالدة فقد كان نوح - عليه السلام - من أولي العزم من الرسل، لصبره مع قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا .

2- الرحمة بالمدعوين.

3- الحلم على المدعوين.

4- المبادرة وعدم التراخي في الإمتثال لأمر الله - عز و جل - .

5- الحرص على تنويع الآساليب، لئلا يصاب القوم بالسآمة و الملل، و ليلفت انتباههم إلى دعوته.

6- تفويض الأمر كله و الشكوى إلى الله، فنوح - عليه السلام- يشتكي في هذه السورة كلها إلى الله.

7- الدعاء و التذلل بين يدي الله، فدعا لقومه المؤمنين، و دعا على قومه الكافرين.

**- الاساليب الدعوية التي استخدمها نوح -عليه السلام- في دعوته إلى الله:**

1- اسلوب النداء (يا قومي).

2- اسلوب الحوار (قال - قلت)

3- اسلوب الإستعطاف و اللين (إني لكم نذير مبين)

4- تعدد الآساليب والإنتقال من اسلوب إلى آخر (ثم أعلنت لهم و أسررت لهم إسرارًا).

5- الاستدلال بالآيات الكونية على الربوبية ( حين لفت أنظارهم إلى السماء ثم إلى أنفسهم ثم إلى الأرض)

6- الاستدلال بالبعث .

7- اسلوب الإستفهام ( مالكم لا ترجون لله وقارًا) و هو هنا لغرض التوبيخ و التقريع.

8- اسلوب التفصيل بعد الإجمال.

9- اسلوب استخدام الأدلة الشرعية و سد الذرائع.

10- اسلوب الترغيب و الترهيب

11- اسلوب الإنذار قبل العقاب .

12- اسلوب الخطاب.

" تم بحـــــــمد الله "

و الله ولي التوفيـق.

1. صيد الفوائد http://www.saaid.net/Doat/assuhaim/298.htm [↑](#footnote-ref-1)